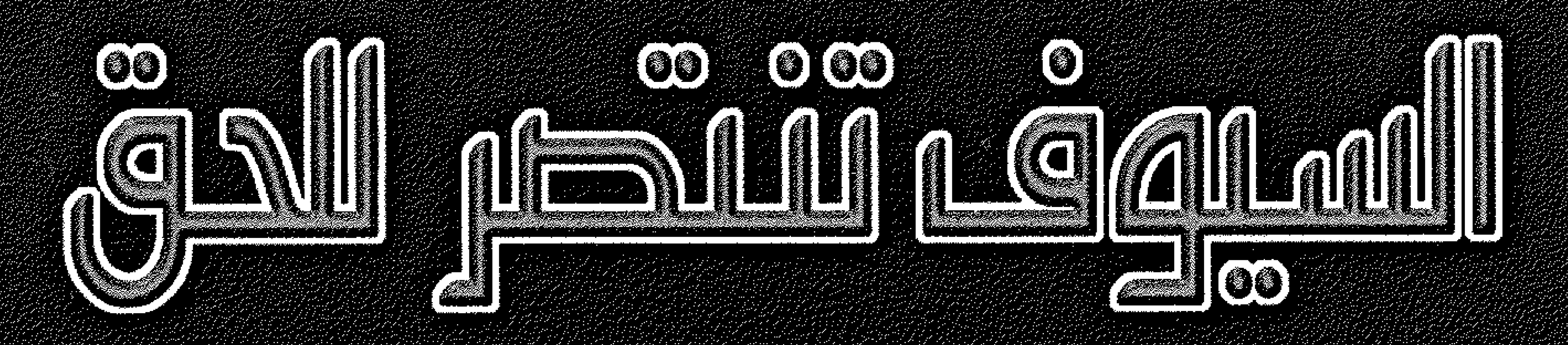


فاطمة شنون

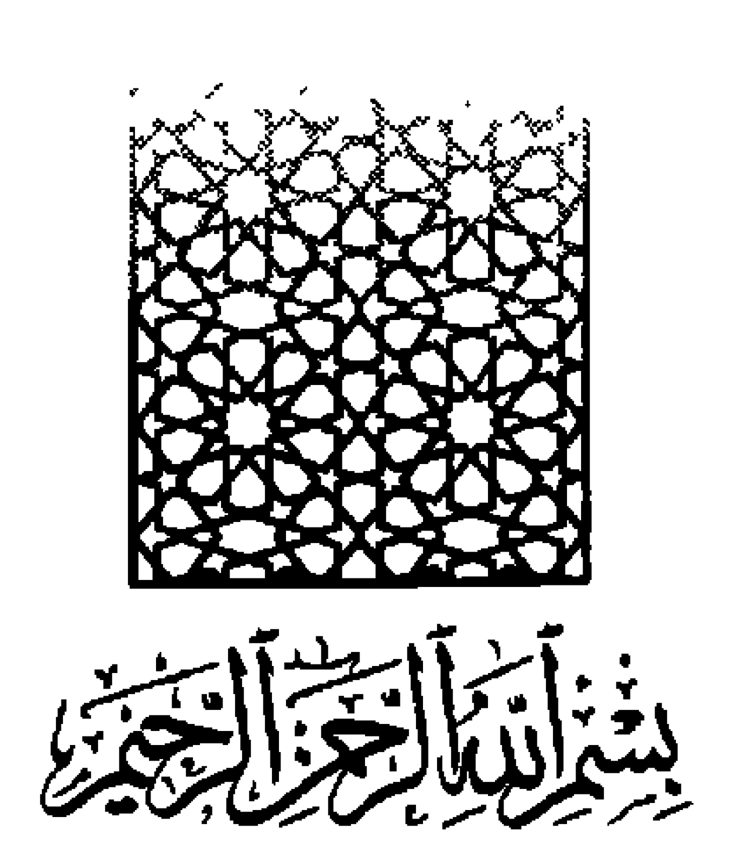
إشراف
فخر الدين قباوة





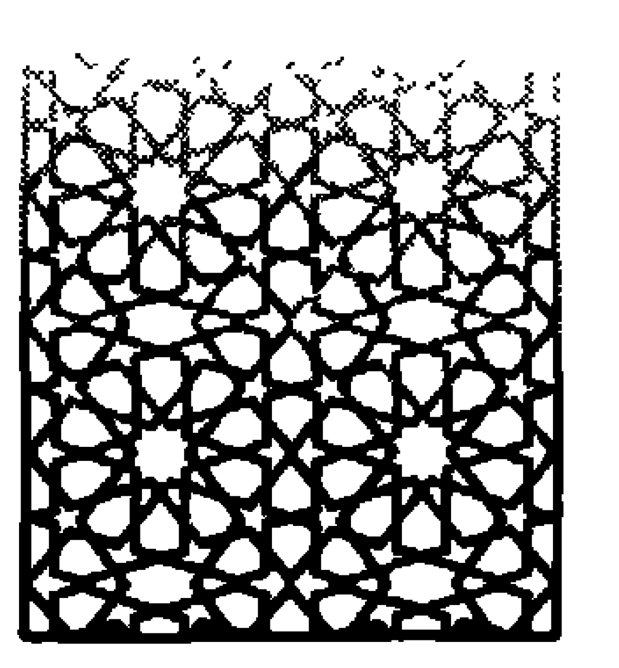
فاطمة محمد شنون

- ولدت في حلب، ودرست في مدارسها، حصلت على الإجازة في الأدب العربي من جامعة حلب، وكذلك على دبلوم الدراسات العليا.
- قامت بتدريس اللغة العربية في الثانوية الشرعية للبنات.
- تمارس كتابة القصة القصيرة لليافعين والكبار، والمقالة، والشعر، وتنشر على قلة في بعض الدوريات العربية كالمجلة العربية ومجلة ماجد.
- تعكف الآن على تأليف مجموعة قصصية جديدة للكبار.



السيوف تنتصر للحق

السيوف تنتصر للحق / فاطمة شنون .-
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩ .- ١٥١ص؛ ٢٤سم .-
(موكب النور) .
١- ٨١٣,٠٨٢ ش ن و س ٢- العنوان
٣- شنون ٤- السلسلة مكتبة الأسد
ع- ١٤٠٢ / ٨ / ١٩٩٩



موكب النور

بإشراف الدكتور فخر الدين قباوة

السيوف تنتصر للحق

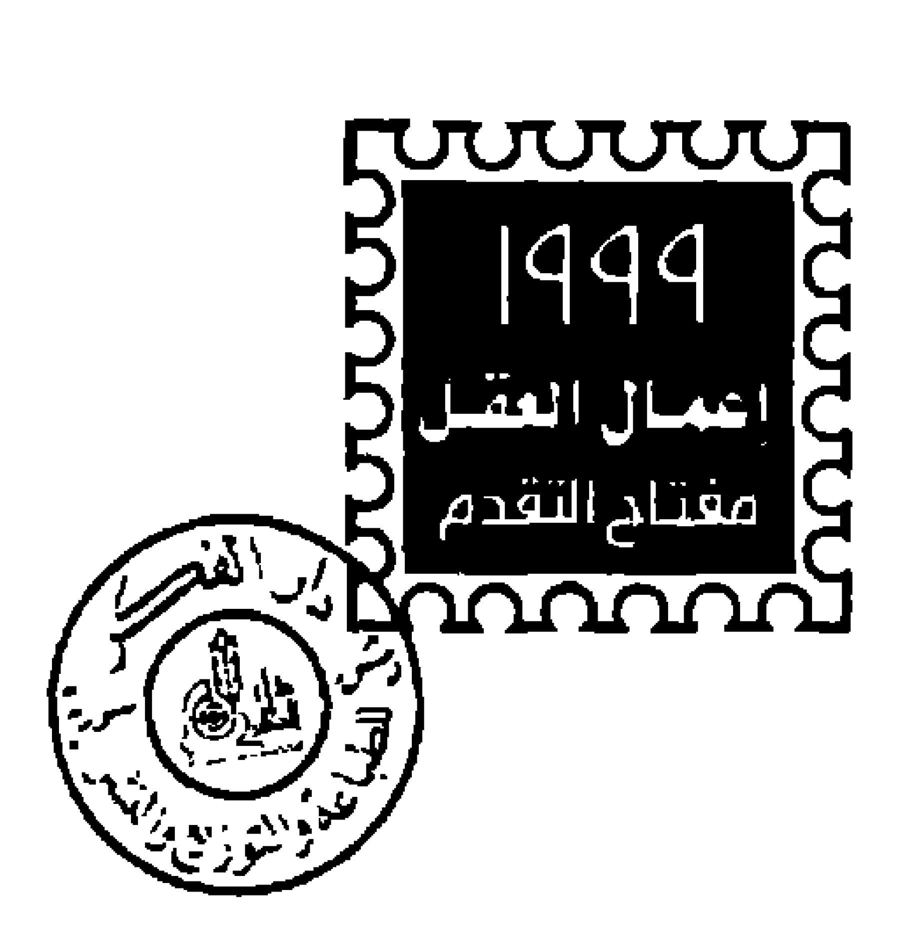
فاطمة شنون

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي للسلسلة : ٠١١, ٣٠٤٦
الرقم الاصطلاحي للحلقة : ٠١١, ١٢٧٧
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-492-1
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-678-9
الرقم الموضوعي: ٨٧٠
الموضوع: أدب الأطفال
السلسلة: موكب النور
العنوان: السيوف تنتصر للحق
التأليف: فاطمة شنون
الإشراف: د. فخر الدين قباوة
الإشراف الفني: محمد سرور علواني
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٥٢ ص
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥ سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com



الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م

ملخص ما سبق

كيف كانت الحياة قبل ألفٍ وأربعِ مئةٍ وتسعةَ عَشَرَ عاماً ، عندما انطلق موكب النّور من جزيرة العرب ، يحمل رسالة الإسلام إلى كلّ النّاس في كلّ مكان ؟

لقد حدّثتنا كتب التّاريخ كثيراً عن ذلك ، لكنّ رحلة حقيقيّة إلى ذلك الزّمان وذلك المكان ستكون شيئاً آخر . لقد انضممنا إلى موكب النّور في مسيرته المباركة من مكّة ، حين لازمْنا سعداً وهنداً ، في مغامرات واقعيّة مشوّقة ، خاضاها عندما اعتنقا الإسلام في أقسى ظروفه ، ثم رافقناهما في طريق الهجرة إلى يثربَ : عبر الصّحارى والواحات ، نتذوّق تلك التّجربة الفريدة ، بدقائقها وتفاصيلها ، ثم وصلنا معهما يَثربَ ، ورأينا كيف انخرطا شيئاً فشيئاً في الحياة الجديدة ، وكيف تمّ النّصر هناك للحقّ على مكايد اليهود والمنافقين ، فقامت دولته المباركة ، دولة الإسلام الأولى .

عايشْنا ذلك كلّه من خلال أحداث حقيقيّة ، ووقائع يوميّة ، في رفقة فِتية وفَتَيات يمارسون حياتهم وأحلامهم ، وها نحن أولاء ، مع أصدقائنا من جديد ، نخوض أكثر التّجارب إثارة ، فنشهد صِدام الإسلام الأوّل بالكفر والباطل في بَدر ، ونختبر عن قرب أصداء تلك المعركة الفاصلة وأجواءها ، في مدينة رسول الله بين النّاس صغاراً وكباراً ، وفي الميدان حيث يلتقي المسلمون بأسلحتهم الفقيرة وقلوبهم الغنيّة ، بأعتى أبطال قُريش وأكبر رجالاتها ، المتسلّحين بباطلهم وغطرستهم ، ونتعرّف ما أدّت إليه تلك المعركة من نتائج وأحداث جسام ، أبرزها وأهمّها أنّها كانت فاتحة للجهاد المستمرّ في سبيل الله لخير الإنسانيّة كلّها .

١

استعدادات

اعتـاد الأولاد في يثربَ غيـاب آبـائهم المتكرّر ، فلا يكاد شمل الأسرة يجتمع حتى ينتزعَ الرّجالَ من بيوتهم التّنادي إلى غَزوة[١] أو سَريّـة[٢] . ولم يكنْ ذلـك لِيخيف الصّغار ، بل كان يجلب لهم أشياء جديدة وجميلة مما يَغنَمـه الآبـاء[٣] ، وطعاماً لذيذاً توفّره المكاسب من الغزو ، وشعوراً بالأمن والرّاحـة ، في كَنَف[٤] والدين سعيدين ، كما يزوّدهم بقصص وحكايـات ، يملؤون بهـا أوقـاتهم ويُترِفون شعورهم .

راحت هند تتسكّع مُحرَجة صـامتـة بين عمّتهـا وبَرّةَ ، وهمـا تحشُران بعض الأطعمة في جراب[٥] كبير سيحمله أبو السّعـد معـه إلى الغَزوة الجـديـدة . كان يسوؤها كثيراً أن تَشعرَ أنه ليس هناك من هو بحاجة إليها ، ولـذلـك انسحبت إلى عَتبة الحُجرة المجاورة بهدوء ، وجلست صامتـة متـأمّلـة : ... هـذا الصّبـاح ليس كغيره ، فالدّار اليوم تضمّ الكثيرين ... وراحت تستعرضهم ... والدهـا ،

---

(١) الغزوة : الخروج إلى قتال المعتدين بقيادة النّبي ﷺ .

(٢) السّريّة : إرسال النّبي ﷺ جيش المسلمين لقتال المعتدين .

(٣) مما يظفرون به من مال أعدائهم بعد أن يهزموهم .

(٤) رعاية .

(٥) الجِراب : كيس يحفظ فيه الطعام ونحوه .

أخاها ، عمّتها ، زوج عمّتها ، وزوجة أبيها ، ويـاسِراً ... وهي . ولو كان مُصعَب وعُتبة هنا لكنّا ثمانية .

وجالت بعينيها في باحة الدّار : لا يبدو الفِناء مُكتظّاً كما كان يبدو في بيت أبي الفَضْل ... كنّا هناك أكثر ... اثني عَشَر شخصاً ، لكنّنا لم نكنْ نجتمع إلاّ نادراً ... أنا عند أمّ أيّوبَ ، والشُّبّان الثّلاثة لا يأتون إلاّ للنّوم ...

كم تغيَّرت الحال ! ذهبت العمّة ومُصعَب وعُتبة ، وانفصلتُ عن أمّ أيّوبَ ، وجـاءت بَرّة ... لم يكنْ من الممكن ألاّ يتزوّجَ أبي ، كما لم يكنْ من الممكن أن تبقى العمّة هنا . كذلك لم يعُدْ من الممكن أن أبقى أنا مع أمّ أيّوبَ ... هل هذا هو الأفضل !؟

عادت تثبّت عينيها بضيق على الجِراب الّذي يزداد انتفاخاً ، وقفز إلى ذاكرتها مشهد قديم ، مشهد الأمتعة المحزومة وراء باب الدّار ليلة الرّحيل عن مكّةَ ، ليلة اكتشفت أنه يومُها الأخير هناك ... أصبحت الآن كبيرة ... ورمقت عمّتها بطرف عينها : لم تعودي تُخفين عنّي الأمور ، لم يَعدْ يُهمّك شعوري ... زوجك هذا ، الصّامت أبداً ، سرقك حتى من ولديك ، كما سرقتْ بَرّة والدي . واستدركت بسرعة : لكنّ بَرّة لم تسرِقْه ، الحقّ أنها لم تسرِقْه ... وأبو العَبّاس ؟ كلّهم يؤكّدون أنه لم يسرقْ العمّة ... هل أنا مخطئة في كلّ شيء ؟! ولم تهتمّ كثيراً بإجابة تساؤلها .

مرّة أخرى راحت تجرّب استيعاب الفِناء بمن فيه بعينيها ... لماذا لا تتذوّق تلك اللّحَظاتِ كما هي ، وسيكون لديها بعد ساعات الكثير من الوقت للوُجوم

والتّفكير واستعادة الذّكريات ؟... وتفقّدَت سعداً . كان واقِفاً في مواجهة أبيه وأبي العَبّاس الجالِسَين إلى اليمين ، وكأنّما هما جالسان خِصّيصاً للرّدّ على أسئلته ، لقد أحسّت بعدم ترحيبهم بوقوفها بينهم قبل لَحَظات ، وذلك عندما اقتربت منكمِشةً لتستمعَ إلى أسئلة سعد ، وكان قد تقلّد سيف أبيه[1] ، مُحتالاً على الحِمالة[2] الطّويلة ... أحسّت أنّ قامته تنحني تحت ثِقَل السّيف ، لكنّه كان يتظاهر بالتّحمّل . ووصلها صوته لاهِثاً : نتدرَّب بأمثاله ... إنها مهارةٌ أكثرُ منها قوّةَ ساعد . ثم راح يُمطِر الرّجلين بأسئلته حول سيف أبي العَبّاس ، الممدَّد معترِضاً فخِذَيه ، مُستكِيناً في غِمْده .

أحسّت أن سعداً يريد تجريد ذلك السّيف[3] ، وتفحُّصه ، وتحسُّسه بيديه ، بل إنها لتُراهِن على أنه مستعد لنزع سيف أبيه عن عاتقه[4] ، ليمسكَ بسيف أبي العَبّاس ، ويتعرَّفَه ، فهي لا تخطئ بريق الشّوق والرّغبة في عينَي أخيها ، لكنّها لا تهتمّ لذلك ، لا تهتمّ ألاّ يَحفِلَ[5] أبو العَبّاس برَغبة أخيها ، أو لا ينتبهَ إليها ... فها هي ذي لا يكاد ينتبه إليها أحد ، حتى ياسِر كان منهمِكاً بمَتْح الماء من البئر[6] ، لمَلء كلّ إناء يمكن مَلْؤه ، قبل أن ينطلقَ مع الرِّجال ..

---

(١) علقه على عاتقه .

(٢) الحمالة : علاقة السيف .

(٣) استلاله .

(٤) العاتق : أعلى الذّراع والعنق .

(٥) لا يبالي .

(٦) باستخراجه منه .

الجميع منهمِكون ، كلٌّ يريد إنجاز ما وُكِلَ إليه من عمل ...مشهد يتكرَّر دائماً ، قبل كلّ سَريّة أو غَزوة . وأحسّت بالمزيد من الضّيق والمَلل ، بالحاجة إلى الكلام ، بل أحسّت بالتّعب ... ولم تُكلّفْ نفسها عَناء البحث عن مجلس ، بل هبطت بهدوء إلى الأرض حيث تقف ، وجلست مستنِدة إلى عِضادة الباب[1] . أخيراً قرَّرت الإنصات إلى عمّتها وبَرّة ... وكان أوّلَ ما سمعته قولُ عمّتها : سأواجه مشكلةً مع التّوءمين ... فهما لا يكادان يتقبّلان وجود أبي العَبّاس حتى الآن ...

فتحت هند عينيها متحفّزةً : مشكلة !؟ وتكلَّمت بَرّة ، وما يزال في صوتها أثر البكاء : أرسليهما إلينا .

ما الّذي تقوله هذه البَكّاءة !؟ وضحكت العمّة : سأفعل ، لكنّ الوقت ما يزال مُبكّراً ...

ـ أرسليهما منذ الآن ليعتادا ...

وتساءلت هند بفضول أنعش تفكيرها : ما الّذي ينبغي أن يعتاداه !؟ وتفحَّصت وجه عمّتها ... إنّها لا تبكي ... لا أحد يبكي إلاّ بَرّة ... كلّما غادر والدي مع النّبيّ تقضي يوماً كاملاً في البكاء ، ثم تستأنف الهروَلة بين بيت أبيها وبيتنا مُدَّعية أن أمّها مريضة ، بينما هي تسعى للحصول على طفل ... لا يسوءُني ذلك ... بل إنّه لأمر حسن أن يكونَ هنا طفل ... ولكن لماذا يأتي مُصعَب وعُتبة ؟

---

(١) عضادة الباب : إحدى خشبتين تنصبان على جانبي الباب .

وكأنّما أفاقت فجأةً .. العمّة ... هل تنوي أن تفعلَها ؟!! وعادت تتفحّصها من جديد : من المؤكّد أنها تحمل طفلاً ... هذا هو السِّرّ وراء ذلك المظهر الّذي بدأ يَلفِت انتباهها منذ حين ... ومن العجيب أن هذا الاكتشاف المثير لم يبعثْ في رأس هند المكتئبة سوى فكرة واحدة : سيصبح لدينا أربعة ... وعادت تتفحّص الفِناء من جديد : أربعة يتقافزون هنا . وارتسمت على وجهها ابتسامة ، وهي تتخيّل مُصعَباً وعُتبة يتنازعان صغيرين مُتعثِّرَيِ الخُطا : هل أستطيع أن ألعبَ معهم يومذاك ؟ سأكون قد كبِرت أكثر .. لكن لا بأسَ بذلك في غياب الكبار .

بلغ الضّجر بهند أقصاه ، فانتفضت واقفة بحركة عنيفة مقصودة ، انتزعت عمّتها من الإكباب على قميص لأبيها[1] تُصلِح كُمّه على عَجَل ... وكأنّما اختصرت العمّة بنظرة خاطفة كلّ أفكار هند ، فقالت مُبادِرة : ألا تَجِدين ما تقومين بعمله ؟.. تعالَي .

اقتربت هند بتذمُّر من العمّة ، وعقدت ذراعيها على صدرها : ماذا أفعل ، هل أمتَح الماء ؟ أم أحشو الجِراب ؟

ورمت بنظرة خاطفة إلى أخيها : أم أتقلّد السيف وأُثرثر ؟

لقد نفّست عن غضبها ... لكنّ نظرة عمّتها أشعرتها بالنّدم ، ولم تكنْ أكثر من نظرة ، إذ سُرعانَ ما مدّت العمّة يدها بالقميص : هاكِ ... أكملي هذا ...

---

(١) الانشغال به .

بوغِتَت هند : أرفو ؟! ياللعمل !! وعاد الغضب يغلي في عروقها ، لكنّها وأدَت ثورتها ، فقد كانت تخجل من إحساساتها السّلبيّة أمام عمّتها ... مدّت يدها تتناول القميص ... وداهمها فجأة ذلك الحنين القديم إلى تَقمُّص العمّة[1] ، إلى الانفراد بها ، والنُّفوذ إلى أعماقها الجميلة القويّة ، من خلال حديث طويل .

(١) تقليدها ومحاكاتها في سلوكها وهيئتها .

٢

زَوبَعة صغيرة

كان الرَّفْو من الأعمال المُبَغَّضة إلى هند ... لذلك عكفت على قميص أبيها مستنجدة بكلّ ما لديها من صبر ورَغبة في استرضاء العمّة ، وإسكات ذلك النّدم العنيد الذي يُصِرّ على مضاعَفة كآبتها .

فجأة اندفع الباب بقوّة ، واقتحمه مُصعَب بوجهه فاتحاً فاه إلى أقصاه ، وقد انخرط في عَوِيل مرير ، وغسلت الدّموع وجهه المحتقِن[1] . وكأنّما لاح الفرج عينَه لهند ، فألقت القميص في حَجر عمّتها ، وهَرِعت إلى مُصعَب تحتضن رأسه مبدية الأسى والألم . أمّا هو فالتصق بها ناشجاً ، وهَرِع الجميع إليهما إلاّ العمّة ، فقد ألقت نظرة على مُصعَب ، وهبّت إلى الباب ، دون أن تنبس بكلمة ، بينما تصاعد عَوِيل مُصعَب وهو يرمُقها بنظرة جانبيّة لم تَرُقْ هنداً . وأسرع أبو السّعد وأبو العَبّاس يتحسّسان جسد مُصعَب وجبهته ، ثم قال أبو السّعد باطمئنان : لا بأسَ عليه ... إنه غاضب أو خائف ...

أدركت هند أن الحقيقة هناك ، في البيت المجاور ، فانحنت على الصّغير ، وهمست بلهجة الواثق : لقد ضربك عُتبة ... ضربك أليس كذلك ؟

---

(١) المنتفخ بسبب الانفعال .

توقّف مُصعَب عن البكاء لحظةً قصيرة ، ثم استأنف عَوِيله بهدوء أكثر ، وهو يَحني رأسه بالإيجاب : ... شَجّ رأسي ...

صاح سعد وهو يتظاهر بالاستنكار : شجّ رأسك !!! وهو ؟ ماذا حلّ به ؟

أجاب مُصعَب وقد اختفى كلّ أثر للبكاء من صوته : سقطت فوقه ذات الحِلَق[1] ... تعثّر بها ...

وهبّ سعد مذعوراً ، واتّجه إلى الباب ، وهو يتوعّد مُصعَباً : سوف أُريك ... تعثّر بها ، أليسَ كذلك ؟!...

وكانت هند وبَرّة صامتتين ، وحاولت هند فهم الحقيقة ، فسألت مُصعَباً الخائف : هل تشاجرتما ؟ ماذا فعلت بأخيك ؟

نظر إليها خائفاً : لم ألمَسه ... والله لم ألمَسه .

عندما دخل سعد بيت العمّة كانت قد أضجعت عُتبة في حَجرها تهدهده وهو يَنشَج[2] بينما أمسكت بكعبَي[3] قدمه اليسرى ، الّتي بدت مُحمَرّةً ، والدّم ينزِف من إبهامها ... جثا سعد يقبِّل رأس الصّغير ، فقد كان عُتبة الأثير لديه ، ورفع عينيه إلى العمّة : ماذا فعل به ؟ ضربه ؟

أشارت العمّة برأسها بالنّفي .

---

(١) قدر كبيرة في حوافها حلقتان أو أكثر للحمل .

(٢) يبكي بصوت مكتوم .

(٣) الكعبان : عظمان بارزان عن يمنة القدم وعن يسرتها .

ـ مالِقَدمه ؟! يقول مُصعَب تارةً إن القِدْر سقطت فوقها ... ويقول تارةً إنّه تعثَّر بها ...

ـ سقطت فوقها ... الحمد لله أن الأمر انتهى عند ذلك ...

ألقى سعد نظرة إلى القِدْر المُلقاة على الأرض ، وقد تدلّى حبل قصير من إحدى حلقاتها . والتفت إلى عُتبة : كيف حدث ذلك ؟

قال عُتبة الّذي كان يتابع حديث سعد وأمّه بعينيه الدّامعتين : إنه مُصعَب ... ناداني وهو يغادر الحُجرة : أفِقْ ... أفِقْ ... الحقْ بي بسرعة ... أنا ذاهب إلى بيت خالي . ونهضت لألحقَ به ، فَجَذَبتُ القِدْر ، فسقطت من فوق الدّكّة ، فَحَطَمت قدمي ... لم أستطِعْ اللَّحاق به ، لأن قدمي جريحة ، ومشدودة إلى القِدْر .

نظر سعد بدهشة إلى عمّته ، ثم عاد ينظر إلى عُتبة : عُتبة ... قلِ الحقيقة ... هل أسأتَ إليه ؟

عاد عُتبة يبكي بألم : لم أفعلْ شيئاً ...

قالت العمّة : كان نائماً ... يبدو أنَّ مُصعَباً ربط القِدْر إلى قدمه ، وكانت على الدّكة هنا ، ثم أيقظه ، فنهض مسرعاً ، وسقطت القِدْر فوق قدمه ... عَبثٌ مؤذٍ .

ـ إذاً فقد كان يمازحه ... لم يقدِّرْ أنه سيصاب بأذًى ... أرأيتِ كم كان فزِعاً ؟!

ـ سأعرف ذلك الآن ... ابقَ أنت مع عُتبة قليلاً ، سأعود لمساعدة بَرّة ... وعندما يسكن ألم قدمه تعالَيا إلينا ...

تدحرج عُتبة من حَجر العمّة ، واعتدل جالِساً وهو يقول : أستطيع القفز على رجل واحدة ، دعينا نذهبْ معكِ .

أمسكت العمّة بالصّغير على عجَل : لا تنتصب مُدَلّياً رِجلك ... سيزداد نَزْف إبهامك ، تمدّد الآنَ ، وارفع قدمك ، سيأتي بك سعد بعد قليل .

استكان الصّغير في فراشه ، بينما اضطجع سعد بجانبه مُرتَفِقاً[1] : تعالَ أحَدّثْك عن التّدريب .

ـ وعدتني أن تأخذَني معك بعد انطلاق خالي وأبي العَبّاس ...

ـ لكنّك الآن لا تستطيع السَّير .

ـ أستطيع ... أريد أن أغيظَ مُصعَباً ... قال إنه لن يدعَني أذهب ...

استوقفَتِ العِبارةُ العمّةَ ، فاستدارت بعد أن كانت تَهُمّ بالخروج : متى قال لك ذلك ؟

ـ البارحة ...

هزّت رأسها كمن اكتشف أمراً ينبغي التَّوقُّف عنده ... والتقت عيناها بعينَي سعد ، فبدا لكليهما أن الأمر قد اتّضح . ورفع سعد كفّه وضرب بها جبهته ، قائلاً : ياله من ولد !!

وخرجت العمّة دون تعقيب ، بينما التفت عُتبة إلى سعد : لن أعرُجَ أمامه ... سأتظاهر بأنني لا أُحِسُّ بالألم ، وستصحَبني ... قالت أمي إنّني أستطيع المشي بعد قليل ... وها أنا ذا مستلقٍ لأشفى ، اذهبْ وحدك الآن .

(١) متّكئاً على مِرفَقه . والمِرفَق : نقطة اتّصال الذراع بالعَضُد .

ـ سأمكث معك حتى يرقأ[1] الدّم ، ثم نذهب معاً ، وستَبيتون عندنا اللّيلة ... أيسُرّك ذلك ؟

ـ أجل ...

ـ سأطلب من العمّة أن تأتيَ وإيّاكما لِلمُكث عندنا طيلة غياب أبي العَبّاس ...

ـ أنا أريد البقاء عندكم دائماً ، وليس فقط في أيّام الغَزَوات ... أريد أن أبقى مع خالي ...

ابتسَمَ سعد : أتذكُر ؟... كنتما تناديانه أبي ...

ـ ... لكنّه ليس أبانا ... وأبو العَبّاس كذلك ... إنه رجل هنا ، ولكنّه ليس أبانا ... ليس هناك من هو أب لنا .

أحسّ سعد بالحرَج ، لكنّه أسعف نفسه بالعودة إلى الحديث الأصليّ : أنتم قريبون منّا ، ويمكنكم المجيء إلينا في أيّة لحظة تريدون .

صمت عُتبة على مَضض[2] ، فلم يكنْ كثير الجدال كهند وأخيه ، وكان الألم والبكاء قد نالا منه ففترت حركته ، وساعده سعد على الاسترخاء ، ممسكاً يده الصّغيرة الدّافئة ، حتى استسلم إلى النّوم .

---

(١) يجفّ وينقطع .

(٢) على كره وتألّم .

٣

إلى بَدر

غـادر الرّجـال الثّلاثـة الـدّار متّجهين إلى مسجـد رسـول الله ، حيث كانت تنتظرهم نـاقـة لأبي العَبّـاس ، سبقهم بهـا أحـد أبنـائـه ليعتقبوهـا[١] في غزوتهم تلك . كان أبو السّعد وأبو العَبّاس في المقدّمة ، أما سعـد فكان ينوء بـالجِراب[٢] المنتفخ ، محاولاً اللّحاق بياسر المُوقَر[٣] بالعديد من الأمتعـة ... بينمـا اصطفّت النّسوة الثّلاث بالباب واجماتٍ ، حتى غيَّبت أجَمة النّخل العَقِيم رجالَهن[٤] .

زفَرت العمّة متثاقلة ، وقالت : لِندخلْ ... سأتفقّد عُتبة وألتحق بكمـا ... مع هذه العبارة استعـادت هنـد مـا نقلـه إليهـا سعـد قبل قليل عمّـا حـدث بين التّوءمين ، وأدركت جازمةً أنه السِّرّ وراء استسلام مُصعَب لقبضتها طيلة ذلـك الوقت . إنّه يحتمي بها من عقاب يستحِقّه ، عقـاب أجَّلـه ، ولم يُلْغِـه ، انشغـال العمّة . وأحسّت بالإشفاق عليه ، رغم اعترافها بذنبه .

عنـدمـا دخلت العمّـة تقود عُتبـة كانت بَرّة مـا تزال تبكي ، فنظرت إليهـا

---

(١) ليتناوبوا ركوبها . وذلك لقلة ما كان لديهم من النّوق والجياد .

(٢) يمشي به مُثقلاً .

(٣) المُثقَل .

(٤) حجبتهم عن الأنظار مجموعة من أشجار النخيل غير المثمرة .

بشيء من العتاب والضّيق : بَرّة ... أنا في مثل موقفك ... الأمر لا يقتضي البكاء ...

قالت بَرّة بصوت متهدّج : لا نكاد نجتمع أسبوعاً كاملاً ...

ـ أتريدين أن يتخلّفَ زوجك عن رسول الله ؟!...

ـ مَعاذَ الله ... لو كانَ هناك قتال لما قلت هذا . ولكن ألا تَرَين أن كثيراً من النّاس لم يخرجوا ؟... أنا أُوثِر وجود أبي السّعد بيننا على الغنائم .

ـ لم يخرجْ مَن خرج للغنيمة فقط ... يجب أن تعرفَ قُريش أننا أصبحنا قوّةً تَحسُب لها حساباً ...

ـ لكن الوَحدة قاسية ...

ـ أيَّة وَحدة !؟ كلّنا حولَك ... فماذا عن أمّ أيّوبَ ! بل أمّ الفَضْل ! إنهما حقّاً وحيدتان .

أحسّت هند بالخجل وتأنيب الضّمير : عمّتي ... ألا ينبغي أن نزورَهما ؟ لقد اشتَقت إلى أمّ أيّوب ... أريد المبادرة هذه المرّة بزيارتها ... كلَّ مرة يخرج فيها أبو أيّوبَ تأتي هي إلينا ...

ـ أجل ... يجب أن نزورَها ، ونزورَ أمّ الفَضْل ...

والتفتت إلى بَرّة ثانيةً : إنْ هي إلاّ أيّام قليلة[1] ، ثم يعودون إن شاء الله ...

---

(١) ما هي إلاّ أيام قليلة .

ـ بل أسبوع ، وربما أكثر ... لقد خرجوا يترصَّدون قافلة لا يعرفون تماماً متى وأين يصادفونها .

ـ لا تبالغي بَرّة ... ستَرِد القافلة بدراً غداً أو بعدَ غد ... لا بدّ أن تفعلَ ...

انبرت هند : عمّتي ... لا أفهم كيف سيتِمّ ذلك .

ـ وما هو غير المفهوم في الأمر ؟

ـ تقولين إن القافلة تصل غداً أو بعدَ غد ؟!

ـ أجل ... إن شاء الله .

ـ إذاً ستكتشف طليعتهم[1] وجودنا فيتفادَوننا[2] ...

ـ الأمر مدروس ... سيكمُن النّبيّ بالنّاس حيث يمكنهم مفاجأة القافلة في الوقت المناسب .

ـ آه ... هكذا ! كنت أحسَب أنهم سيخرجون مكشوفين هكذا ... وقلت في نفسي : ستكتشفهم طليعة أبي سُفيان .

ـ قبل الشُّروع في عمل مّا ، ولا سيّما الأعمالُ الخطيرة ، لا بدّ من التّفكير في الاحتمالات ووضع الخُطط .

ـ ... الوَقِحون !! يتاجرون بأموالنا !!... لسوف يَرَون أننا أصبحنا قادرين على استردادها .

(١) الطليعة : مجموعة من الفرسان تسبق القافلة لاستكشاف الطريق .

(٢) يتجنّبوننا .

ـ لن نستردَّ أموالنا فَحَسْبُ ... نريد أن يعلموا أن الحقّ قد أصبح سيّداً ، وله قوّة تقهَر باطلَهم وكفرَهم وعنادَهم ...

أحسّت هند بالتّناقض الكبير بين صلابة وحماسة العمّة ، ومخاوف بَرّة ودموعها ... لكنّها كانت تعرف أن عمّتها امرأة فريدة ، ليس هناك الكثيرات مثلها ... بل إنها لم ترَ امرأة مثلها قطّ ... وعاودها الشّوق إلى أن تكونَ هي تلك المرأةَ في يومٍ من الأيّام ...

راحت بَرّة تجفّف بقايا دموعها بطرف كُمّها ، وهي تمسح رأس عُتبةَ المتّكئِ على رُكبة أمّه ، وتمتمت مستسلمة : ليت الأمر كما تقولان ...

ثم انحنت على قدم الصّغير الممدودة تتفحّصها ، في محاولة لتغيير دَفّة الحديث[1] : أتؤلمك ؟

نظر إليها عُتبة ، وهزَّ رأسه نافياً . أما مُصعَب فقد اعتدل في جِلسته ، وهو يُلقي نظرة إلى الفراغ أمامه ، وقال باندفاع فيه رَنّة النّدم : صغيرة ... لا تؤلم كثيراً ...

نظرت العمّة إلى مُصعَب متجهّمةً ، وقالت : لِمَ فعلتَ ذلك ؟

سحب مُصعَب عينيه إلى حَجره دون أن يفتحَ فمه . فكرّرت العمّة بحزم : لِمَ فعلتَ ذلك ؟

قال متلعثماً وهو يُنَقّل بصره في الفراغ مُحرَجاً : ... كنت أمازحه .

تدخّلت بَرّة تلومه : لو سقطت القِدْر على رأسه لقتلته .

(١) التحوّل في الحديث من موضوع إلى آخر .

فالتفت إليها ، كَمَن وجد لنفسه مخرَجاً من حصار : جرَرْت رأسه بعيداً ...

أسرعت هند تغتنم الفرصة : إذاً فأنت لم تُرِد إيذاءه .

ـ لا ...

ـ فلو جَرَرْتـه أكثر لسقطت القِـدْر على الأرض ، وأخـافتـه فقـط . لِمَ لم تفعـلْ ذلك ؟

أجاب باندفاع عَفوِيّ : إذاً ما كانت لِتُصيبَه ...

اتّسعت العيون دهشةً ، وأشارت العمّـة خِلسـةً إلى بَرّة وهنـد بـالصّمت ، ثم التفتت إلى مُصعَب : لماذا أردتَها أن تصيبَه ؟

فوجئ مُصعَب : وانتفص : لم أُرِدْها ...

كرّرت العمّة بإصرار : لماذا أردتَها أن تصيبَه ؟...

انخرط مُصعَب في البكاء مـذعـوراً ، ودفن وجهـه في عَضُـد هنـد الّتي احتضنتـه مُشفِقةً . وعنـد ذلـك قـالت العمّـة ببسـاطـة : حسنـاً ... لن ترافقَ سعـداً إلى التّدريب .

نظر إلى أمّه بتَحَدٍّ : سأبقى مع عُتبة .

ـ عُتبة سيرافقه .

استنكر بفزع : لكنّ قدمه مجروحة !!!

ـ حتى ذلك الحين سيستطيع المشي .

صرخ مُحتَجّاً وقد تهدَّج[1] صوته بالبكاء : لكنك تقولين : المريض لا يخرج من البيت ...

ـ وأقول : من يؤذي أخاه لا يخرج من البيت . ولئن فعلتَها ثانيةً فسأحبسك هناك ، ونأتي نحن إلى هنا .

نهض مُصعَب مُغضَباً لِخَيبة مسعاه ، وقد ازداد عَوِيله ، وهرول إلى حُجرة هند حانقاً . وحاولت هند اللّحاق به ، لكنَّ العمّة أمسكت يدها بقوّة ثبّتتها على الأرض : لا تلحقي به ، يجب أن يشعرَ بخطئه ... أراد إيذاء أخيه ، ليمنَعه من مرافقة سعد ، ويحظى هو بذلك .

هزّت بَرّة رأسها مُؤيِّدةً ، واندفعت هند تقول : هذا صحيح ، ولكنَّ سعداً هو المَلُوم ، سمعته يقول له : إن كنتُ مصطحِباً أحداً فسأصطحب عُتبة .

ـ كلّ هذا لا يُبرِّر فَعلته ...[2] لا يجوز أن يؤذيَ منافِسَه ، هذا غدر حرَّمه الله .

---

(١) تقطّع وارتعش .

(٢) الفَعلة : العمل المستنكر .

٤

عاصفة في الأفق

مضى اليـوم الثّـالث على خروج النَّبيّ بـالمسلمين لاعتراض تجـارة قُريش . وكانت أحاديث النّاس ملأى بـالأمل والتَّرقُّب ، فهم يتوقَّعون في كلّ لحظـة أن ينطلقَ صـوت البشير في أحيـاء المـدينـة ، معلِنـاً عـودة النَّبيّ وصَحْبـه سـالِمين غانِمين ، كما كان يحدث كلَّ مرّة .

وفي بيت أبي السّعد راح ضُحًى جديـد يـذُرّ ذهبـه على استحيـاء في فُسحـة الدّار ، غامراً الجـدار الغربيّ كلّـه بنور شـاحب دافئ ، وكان جميع مَن في الـدّار نياماً ، كأنّ كُلاًّ منهم يريد أن يستمتعَ بلَذّة أحلامه أطولَ مدّةٍ .

لقد أتاحت الدّار الجديدة بِحُجُراتها الثّلاث الصّغيرة مَبيتـاً مستقلاً لسعـد ، حتى في مثل هـذه الأحـوال ، حيث تعـود إليهم العمّـة بمُصعَب وعُتبـة ، وكثيراً مـا كان يحـدث ذلـك ، فـما إن يغـادر الرّجـال إلى غَـزوة أو سَرِيّـة حتى يحتَـلَّ التّوءمان الدّار ، فيعيدا إليها الحياة والمرح والصّخَب الّـذي تفتقـده ، ويؤجّجـا الشّوق في قلب بَرّة إلى طفل ، يشاركهما في صنع ذلك الفرح ...

أما سعد وهند فلم يكنْ ذلك لِيضايقَهما . وعلى الرّغم من فتَرات التّـأمُّل الّتي يحتاج إليها شاعرنا الصّغير ، ولحظات الـذّكريـات التي لا تستغني عنهـا هنـد ،

فقد كانت السّاعات الأولى من النّهار تكفيهما ، إذ لم يكنِ التّوءمان لِيستيقظا قبل ارتفاع الضُّحى وامتداد الشَّمس .

راح سعد يستعيد بتلذُّذ أحلامه بالسَّيف الموعود الّذي قد يغنمه أبوه من تجارة قُريش ، وكان يحلُم به سيفاً صَقيلاً ، وتستطيع ذراعه الفَتِيّة انتضاءه[1] . وانقاد إلى أحلامه ، فإذا هو يتجوَّل في أحياء يَثربَ متقلِّداً السّيف ... ويمرّ بدار عبد الله ، فتبرُق عينا هالة الباسمتان بالمزيد من الإعجاب ، وقد يسمح لها ولإبراهيم أن يَمَسّا سيفه ، ولكنّ عليه أن يُحَذِّرَهما الحَدَّ ، فهو شديد المَضاء[2] ، وقد يصيب أصابعهما الغضّة بالأذى ...

وانتشله من حُلمه الممتع صوت من الخارج : سعد ... سعد ...

هبّ سعد يهتِف وهو يخرج إلى باب الحُجرة هاشّاً : ادخل ... ادخل ... تعالَ أُسامة .

دفع الصَّبيّ الأسمر الباب بحذَر ، وأطلَّ بوجهه الصَّغير النّابه ، وقد علته ابتسامة فاترة ، ثم دخل مُحَيِّياً . فبادره سعد : ماذا وراءك ؟ ما أخبار ابنة رسول الله ؟

ـ كما هي ... أنا وزوجها نرعاها ... وكثيراً مّا تأتي أمّي أيضاً ...

تساءل سعد بقلق : ألم تَغدُ أفضلَ حالاً ؟

ـ أفضل !! والدتي تقول إنها ستفارق الحياة في أيّة لحظة .

---

(١) استلاله من غمده .

(٢) حاد سريع القطع .

أحسّ سعد بالذُّعر : ستموت ؟!

هزّ أُسامة رأسه بمرارة : لا أدري ... لا أدري .

وأضاف على عجَل ، وقد تغيّرت نَبرة صوتـه : سعـد ... لقـد تركتُ ابن عَفّـانَ وحدَه مع رُقَيّة ، وأتيت لأنقلَ إليك نبأ سمعتُه .

ـ ماذا هنالك ؟... أنت تُرهِبني ...

ـ اسمع ... جاء البارحـةَ من أخبر عُثمانَ أن جيشـاً من قُريش غـادرَ مَكّـةَ منـذ أيّام ، لِحمايةِ قافلة أبي سُفيان ...

ـ ماذا ؟! ومتى كانت قُريش تخرج في جيش لحماية قوافلها ؟

قال أُسامة بضيق : ليس الأمر كذلـك ... سمعوا بخروجنـا في طلب القـافلـة ، فتجهّزوا لقتالنا .

ـ لا ... أتظنّ ذلك !؟

هزَّ أُسامة رأسه بحَيرة ، وعيناه تجولان في فضاء الحُجرة ، دون أن تلتقيـا بعَينَي سعد : لا أعرف ... هذا ما قالوه ... أنا خائف ، والدي معهم ...

بهذه العبارة سقط شيء مّا في قلب سعد ... لكنّـه في الوقت نفسـه أيقن أن همّه يتجاوز هَمّ أُسامة ، إنه ليس قلِقاً على والده فحسْبُ ، هنـاك أمور كثيرة لم يستطعْ تبيُّنَهـا بوضوح في موقفـه ذاك . وكان في فَورة شعـوره يلـوم أُسـامـة ، لكنَّه فَجـأةً تحوّل إلى همٍّ آخر ... أُسـامـة يستحِقُّ العطف لا اللّوم ، فهو صغير ، يصعُب عليه أن يُدركَ ما يدركه سعـد ... وقـال شـارداً كمن يخـاطب نفسـه :

لوعلم النّاس أنْ سيكونُ قتال لخرجوا جميعاً ... حسِبوها غنيمة سهلة ، تُعيد ما تَيسّر من أموالهم المسلوبة .

رفع أُسامة عينين مَليئتين بالقلق والخوف إلى سعد ، وقال : وأنت ؟... هل ترى أنْ سيكون قتال ؟

أحسّ سعد بضيق خانق ، وهو يَربِت كَتِف أُسامة ، دون أن يقوى على النُّطق بكلمة ، وبادله أُسامة النَّظر ثم قال وهو يستدير إلى الباب : أنا ذاهب الآن ... عليَّ البقاء إلى جانب ابنة رسول الله ... مُرَّ بي مع الرِّفاق ... لا تتركوني وحدي ...

ـ ولماذا أنت هناك ؟ أين أَنَس ؟

نظر أُسامة باستغراب : ... ألم يَصحَب النَّبيّ !؟...

ـ آه ... فاذهب الآن ... سأخرج إلى عبد الله وابن عُمر ... سأستطلع الأخبار وسنمرُّ بك في دار عُثمانَ ... اذهب أنت الآن ...

غادر أُسامة مسرعاً ، وألفى سعد نفسه في حَيرة تعصِف بتفكيره ... إنه الآن في نقطة مّا من فراغ هائل ، ولم يكنْ ثَمّةَ ما يتذكَّره ولا ما يَحلُم به ... كانت المفاجأة كرعد قاصف ، هزَّ كِيانه ، وملأه بالخوف والنّقمة والثّورة ، وأحسّ بقوّة تدفعه إلى صُراخ يوقظ الجميع ليشاركوه قلقه وهمّه ، وفجأة سمع من خلفه صوت هند : أيقظَني صوتاكما ... ماذا كان يفعل أُسامة هنا ؟!... دائماً تأتي هند في الوقت المناسب ...

واستدار إليها برأسه نصفَ استدارة ، وعيناه ساهمتان في الفراغ أمامه ، وقال بصوت خال من التّعبير : قُريش قادمة لقتال النَّبيّ والرّجال .

نظرت إليه ، وهي تطرد بقايا النّعاس العالقة بأهدابها : سعد ... ماذا بك ؟!

ـ أُسامة أخبرَني ...

عاجلته متبرِّمة : أخبرَك ؟... بماذا ؟ أتخشيان بضع عَشَرات من الرّجال ، في رُفقة قافلة ؟!... إن الله معنا ... ثم إننا نحن من خرج للقائهم ...

كان في صوتها نَبرة أيقظته من ذهوله . أحسّ كأنّها تُقَرّعه[1] ، كأنّها تقول مؤنِّبةً : هل أنت سعد الّذي يحلُم بسيف يقاتل به ؟! أم سعد الّذي يشُلّه الرّعب لرؤية فارس يعدو في الصّحراء ؟! ألم تتغيّر ؟

انتفض سعد متَّجهاً إليها بِكُلِّيّته ، وقال بصوت قويّ ثابت ، جَهَد[2] في أن يضمِّنَه الإجابة الّتي يريد عن أسئلتها الخفِيّة الموجِعة : أقول لك قُريش قادمة ... جيش من قُريش يتقدَّم إلى هنا ، لمنعِنا من الاستيلاء على قافلة أبي سُفيان .

ـ جيش !؟ أُسامة قال ذلك ؟!

ـ أجل ... هناك من أخبر ابن عَفّانَ ...

ـ وأين هم الآن ؟

ـ لا أحد يعلم ...

---

(١) تلومه بشدة .

(٢) جدّ .

ـ لا تُخِفني سعد ... لم يتجهّزِ النّاس لملاقاة جيش ...

غلب على سعد الشّعور بأن عليه تَهدِئَة رَوْع أخته ، فقال وقد استعاد فجأة رِباطة جَأْشه[1] : يا لهم من لئام !!... لكنّ الله معنا ، كما قلتِ ، وقد خرجنا لاستعادة حقوقنا ... أما هم فلصوص خرجوا لمقاومة الحقّ .

ـ سعد إذا كان هذا صحيحاً فما علينا أن نفعلَ ؟

برقت عينا سعد بإعجاب ، وقال مثبّتاً عينيه في عينَي أخته ، معتمداً على كتفيها بكلتا يديه : لهذا أعتبرك أختاً لا مثيلَ لها .

بادلته ابتسامة خَجْلَى : ماذا تعني !؟

تردَّد ينتقي الكلمات : أيْ ... لا تقفين طويلاً أمام المشكلة ... بل تفكّرين فوراً بما يجب عمله لحلّها .

ـ لا أفهمك تماماً ... لكن لا بدَّ أن هناك ما نستطيع عمله ...

ـ أجل ... لا بدّ من ذلك ...

وانطلق خارجاً ، وهو يقول : سأرى الرّفاق ... سأستطلع الخبر ...

---

(١) استردّ ثباته وجرأته .

٥

أخبار مقلقة

لم تستطعْ هند مقاومة الاندفاع لإيقاظ عمّتها ، لقد هزّها إعجاب أخيها الّذي أبداه أوّل مرّة بتلك الصّراحة ، وأحسّت أنها يجب أن تكونَ عند حسن ظنّه ، فانطلقت كالمنوّمة ، وجئت إلى جوار عمّتها ، وسَبّابتها تعترض شفتيها ، وراحت تهُزّ كتِفها بانفعال صامت ، حَذَرَ استيقاظ مُصعَب وعُتبة .

بدت الدّهشة للحظة على وجه العمّة ... واعتدلت في مَضجعها ، مغطّية عينيها بظهر كفّها ، ثم تلفّتت حولها متسائلة : ماذا هناك ؟!!

همست هند : لا شيء ... لنخرجْ من هنا ...

وأشارت بعينيها إلى الولدين : لئلاّ نوقظَهما .

تبعت العمّة هنداً إلى الحُجرة المجاورة ، وهي تسوّي ضفائرها : لقد أفزعتِني ... ماذا هناك ؟! قالت العمّة عبارتها تلك ، وهي ترمي بنفسها فوق حَشيّة[1] مَطويّة تستند إلى الجدار ، بينما انحنت هند مواجهة لها ، وألقت بالعبارة التي استوجبت كلّ تلك المقدّمات : قُريش قادمة لقتالنا .

تَبدّدَ كلّ أثر للنّوم من عَينَي العمّة ، واعتدلت في جِلستها : من قال ذلك ؟!

(١) فراش محشو .

ـ ... ابن الحِبّ[1] ، كان هنا ...

ـ ماذا قال ؟

ـ قال إن قُريشاً أرسلت جيشاً للدِّفاع عن القافلة ...

ـ من أين أتى أُسامة بهذا الخبر ؟

ـ لاأعرِف ... لاأعرِف شيئاً ... حتى أُسامة لم أرَه ... سعد هو من نقل إليّ الخبر .

تلفّتت العمّة حولها : أين سعد ؟

ـ ذهب .

ـ إلى أين ؟

ـ يقول إنه سيأتي بالأخبار .

هبّت العمّة واقفة : سأذهب لاستطلاع الأمر بنفسي ... لن أتأخّرَ ... واندفعت خارجةً وهي تُحكِم غِطاء رأسها ، وتبعتها هند صامتة ، فلم تستدِرْ إليها ، وصفقت الباب من خلفها .

انطلق صوت بَرّة عن عَتَبة حُجرتها : إلى أين ذهبت رُقَيّة ؟

التفتت هند إليها ، وهي تقاوم رَغبة قويّة مفاجِئة بالبكاء ، وفي اللّحظة نفسها عاد الباب يُدفع بقوّة ، ودخلت العمّة مباشَرةً إلى حُجرتها ، وتبعها سعد وهو

---

(١) لقب أسامة بن زيد . والحِبّ : لقب زيد أبيه ، لحبّ النّبي ﷺ له .

يكرّر محاولاً تبديد التّوتّر المتصاعِد مِن حوله : لم يسمعْ أحد بالأمر ... عبد الله لا يعرف شيئاً ...

وأحسّ أن عليه أن يلعبَ دور الرّجل في هذه اللّحظة ، فمرّ بكفّه على كتِفِ هند ، وهو يتجاوزها إلى حُجرته : لا شيء ... شائعة لا نعرف مدى صِحّتها .

لم يَخْفَ على هند أنّ سعداً يقول ما لا يعتقد ، كما لم يَخْفَ عليها توتّر العمّة واضطرابها . وتقلّبت بصرها بين بابَيِ الحُجرتين ... ودون أن تعطيَ نفسها فرصة للتّردُّد ، لحقت بالعمّة ، بينما هتفت بَرّة بصبر نافد : ماذا هناك ؟

واندفعت لاحقة بهند إلى حُجرة العمّة : رُقَيّة ، ماذا هناك ؟

التفتت العمّة بشيء من الضّيق : سمع سعد أنّ قُريشاً قادمة لحماية القافلة ... ثم تبيَّن أنّه أساء فَهم ما سمع ...

فتحت بَرّة عينيها إلى أقصى اتّساعها ، وهتفت باستنكار : أساء !؟...

فتحت بَرّة عينيها إلى أقصى اتّساعها ، وهتفت باستنكار : أساء !؟...

واستدارت مذعورة تلقي نظرة نحو غرفة سعد : أنا ذاهبة إلى أمّي ... بالأمر ...

نظرت هند إلى بَرّة حائرة ، بينما أسرعت العمّة تقول : اذهبي ... قد يكون لدى أخيك خبر صحيح .

زاد ذلك في قلق هند ، ودون أن تعرفَ السّبب ، أحسّت بالحاجة إلى أمّ أيّوبَ ، وهتفت كمن يُملِي أمراً : يجب أن نرى أمّ أيّوبَ ... إنّها وحيدة الآن ...

قالت العمّة بضيق ، ودون أن تنظرَ إليها : ليس الآن .

من الإجابة المقتضَبة أدركت هند أنْ لا مجال لتَكرار طلبها ، فهي أعلم بإصرار العمّة على الصَّمت عندما يَعِنّ لها ذلك ... حتى إنّها لم تجرؤْ على استيضاحها موعداً للزِّيارة ... وفي تلك اللّحظة كان سعد يغادر الدّار ، فعاجلته هاتفة بضيق : سعد ... إلى أين ؟

ـ إلى عبد الله ... لن أتأخَّرَ .

همست هند بتوسُّل : أنا خائفة ... ماذا لو لم تكنْ شائعة ؟...

قال محاولاً بَتر الحديث : لاأحد يعطي الأمر ما تعطينه من الأهمّية ... وإذا وجد النَّبيّ أنْ لا قِبَل لنا بهم[1] فسيعود بالمسلمين ، ولن يهاجموا القافلة ... نحن من سيهاجم ...

قالت غير مقتنعة : هكذا !!

قال مُتجاهلاً توتُّرها : سأذهب ... عبد الله ينتظر .

دخلت هند حُجرتها صاغرة ، وأغلقت الباب ... سعد هو الآخَر لا يريد أن يتكلَّمَ ... وتناهى إليها صوت عُتبة ... ستُشغَل عمّتها إلى حين بالصّغيرين ، أمّا هي فقد استولى عليها فجأة الإحساس بالتَّمرُّد ، عليها ألا تستسلِمَ لمشاعرها السَّلبيّة ، إنها الآن أمام مُهِمّة ينبغي إنجازها ...

أحسَّت أن عليها أن تُعمِلَ فكرها بسرعة ، وبشكل مُجْدٍ ، فجلست

(١) لا قدرة لنا على قتالهم .

متحفِّزة ، وحملت نفسها[1] على التّفكير كما يلي : مـاذا أستطيع ـ أنـا ـ أن أفعلَ إذا وقعت معركـة ؟؟ لا بـدّ أنني أستطيـع القيـام بعمـل مّـا ... وومضت في ذاكرتها كالبرق صورة تلك المرأة المتحمّسة الّتي طـالمـا رأتها في بيت أبي أيّوبَ : امرأة من مازن تُكنّى بأُمّ عُمارة ، لقد قالت مرّةً كلمـة لازمت ذاكرة هنـد مـدّةً طويلة : « لأُقاتِلَنَّ إلى جانب النَّبيّ متى خرج بالنّاس » .

ولم تستطعْ هند حينذاك التّعبير عن إعجابها بما قـالت ، وكم تمنّت أن تكونَ عمّتها في ذلـك المجلس ! إذاً لتشجّعت هي على الإعـلان عن تـأييـدهـا لأفكار أمّ عُمارة ، بل لكان هناك نصيرتان لتلك الأفكار .

وخاطبت نفسها : لو استطعت الوصول إليها الآن . أمّ أيّوب على صلة بها ... رأيتها هناك مِراراً ... ترى لو أن المعركة وقعت ، وهبّ النّـاس لنجـدة النّبيّ ، فهل تخرج المازِنيّة ؟ وهل يمكن أن أخرجَ معها ؟؟ وكيف سيتِمُّ ذلك ؟؟

واستبعدت هند الفكرة قبل التَّوغُّل في تفاصيلهـا ، فمن العَبَث التّفكير على هذا النّحو ... وإذا خرج النّـاس لنجـدة النَّبيّ ومَن معـه فلن يصطحبوا صَبِيّـة مثلها . وتوصّلت كارهة إلى أنه لا بُدّ لها من الانتظار .

بـدا ذلـك قـاهراً ومَقيتـاً ، وقرَّرت ألاّ يكـونَ انتظـاراً فَحَسْبُ . وراحت تُردِّد : لا بـدّ من عمـل شيء ... لا بـدّ . وعـادت تفكّر : النِّسـاء كما قـالت المازنيّة ... يا لي من غبيّة ! كيف نسيت اسمها ؟! النِّساء في المعركـة يضمّـدن الجراح ، يطهين الطّعام ، يسقِين المحاربين ... لا بدّ أن تكونَ في المَيدان لتقومَ

(١) أجبرتها .

بمثل هذه الأعمال ... أمّا إذا كانت المعركة قد وقعت فسيعود الرّجال بجراحهم ، وسيجد كلٌّ منهم من يُعنَى به ، ولن يكونَ هناك عمل لها .

وصرفت تفكيرها عن ذلك الخاطر : عليّ التّفكيرُ في عمل مُتاح ... أصنع ضِمادات ... يحملها سعد ورفاقه إلى المحتاجين إليها ، بل يحملونها إلى المسجد ... وتبقى هناك ... يجب أن يكونَ في المسجد مخزون من الضّمادات والرّماد ... يجب تهيئة الكثير منها ... ولن أكونَ بمفردي ، سترحّب هالة وحُبَيبة وأمّ أيّوبَ وعمّتي وربّما المازنيّة أيضاً بالفكرة .

وتصوّرت صدى مثل هذا الاقتراح لدى عمّتها ، فكان شديد التّشجيع ، إذ برز لها وجه العمّة وقد علّته الدّهشة والفَرحة ، وبَرقت أساريره بالحماسة والعزيمة ... سترى العمّة أنها فتاة متميّزة يُعتَمد عليها لا في الرّفو فَحَسْبُ ... بل في الأمور الخطيرة أيضاً ...

٦

ماذا يجري في المجهول ؟!

كان القلق يرهق سعداً ، فلا يكاد يستقِرّ في مكان واحد ، فهو دائم التَّنقُّل بين البيت ومجتمع الرّفاق . ولزِمه عبد الله ، يحاول تهدئته بما يملك من قدرة على جلب الرّاحة إلى محدّثه ، لكنّ قدرته تلك كانت تتضاءل مع مرور الأيّام بكماءَ ، لا تحمل خبراً عمّا يجري في المجهول .

لم يكنِ النّاس يتناقلون الخبر بجدّيّة ، فمسير جيش من مَكّة ليس بالأمر الّذي يَخفى على مَن يَقدُم يَثربَ ، وهم كُثُر ، لم ينقلْ أيٌّ منهم خبراً يؤكّد ذلك . لكنّ القلق تمكّن من سعد ، حتى تفتّق ذهنه عن فكرة بدا له أنها لا تحتمل النّقاش ، وها هوذا يُصِرُّ على عبد الله أن يرافقَه إلى ظاهر يَثربَ[1] ، باتّجاه الطّريق الّتي اعتاد القادمون أن يسلكوها ، عسى أن يلتِمسوا خبراً من عابر سبيل ، أو يلتقوا بذويهم عائدين ...

بدا واضحاً للرّفاق جميعاً أن ثَنْي سعد عن عزمه كالخروج معه ، أمران لا جدوى من أيٍّ منهما . ولكنّ عبد الله رأى أن يرافقوه ، علّ ذلك يحمل إليه بعض الرّاحة ، وأبدى أُسامة الصّغير أسفه لأنه لن يستطيعَ مصاحبتهم ، لاشتغاله بتمريض ابنة رسول الله الّتي تفاقم مرضها ، وبلغ درجة خطيرة .

---

(١) أطرافها .

فـوق كثيب[1] لطيف مُشرف على مَضيـق الصّفراء[2] ، تستجمُّ سَرْحــة بـاسقـة[3] يوسوِس بين أغصانها الهواء الرَّخِيُّ الفاتر الَّـذي يعبُر المضيق ، ويمرُّ كيَـد حنون على جباه أصدقائنا المتعَبين ، وهم يقطعون الانتظـار الطّويـل بالحديث والمخاوف والأُمنيات ، قال سعد : يالِهذا الصّمت الثّقيل !!! ليس ثمّة إلاّ حفيف الأغصان الهامس ... أحلُم بنقَرات حوافر جواد ، أو وقْـع خِفـاف بعير[4] ...

قال ابن عُمر : يالأَحلامك !! لن يأتوا إلاّ ونحن نيام في بيوتنا ... أتـذكر يوم وصل النَّبيّ ؟

قال عبد الله مؤكِّداً : لبثنـا أيّـامـاً نخرج للانتظـار ، ولم يـأتِ إلاّ ونحن في القَيلولة .

أضاف ابن عُمر : ثم إننا لا نعرف من أين سيأتون ومتى ...

قال سعد متأفِّفاً وجازماً : نعرف أنّهم لن يتجـاوزوا سهل بَـدر .. هكـذا تقضي الخُطّة .

قال عبـد الله : يـا سعـد ، إذا صحّ أنّ جيشـاً من قُريش قـادم ، فهي مفـاجـأة تقتضي قلب المخطّطات السّابقة ، ووضع أُخرى مناسبةٍ للموقف ...

قال سعد : أين تظنّون يقع اللّقاء ؟

(١) الكثيب : المرتفَع المستطيل المحدّب من الرّمل .

(٢) ممرّ منخفض ، في منطقة هضبيّة ، ذات ماء وزرع ، ويقع على الطّريق إلى بدر فمكّة .

(٣) شجرة عظيمة مرتفعة .

(٤) الخِفاف : جمع خُفّ . وهو قدم الجمل .

قال ابن عُمر : ليس ثمّة ما يرجّح مكاناً على آخر .

قال سعد : هذه الحَيرة قاتلة ... أتمنّى أن أضرِبَ في الصّحراء[1] باتّجاه بَدر ، علّنا نجِد من يخبرنا بشيء ...

اتّسعت عينا عبد الله ، فقد خشي أن يتمسَّكَ سعد بفكرته ، فبادره : لقد بدأت الشّمس تصفرّ ... فلْنُصَلِّ العصر ، ثم لِنتّجِهْ إلى يَثربَ ، يجب أن نصلَ قبل الغروب ... إن أهلنا بانتظارنا لنُفطرَ معهم .

تساءل سعد ساهماً : ترى هل هم صيام ؟

قال ابن عُمر ، وقد أدرك أنه يقصِد النّبيّ ومن معه : سمعت النّبيّ يأمرهم بأن يُفطِروا ...

قال عبد الله : ماأرحم الإسلام !! إنّ في الصّوم مشقّةً عليهم ...

قال ابن عُمر ناهضاً : هيّا فلْنُصَلِّ العصر ، ولْنَعُدْ أدراجَنا[2] ، فلن نستطيعَ التّأخُّر أكثر من ذلك ...

تنفّس عبد الله الصُّعَداء ، عندما تحرَّك سعد بتثاقل ناهضاً ، وصلّى الفِتية الرّكَعاتِ الأربعَ وراء ابن عُمر ، ثم ولّوا ظهورهم إلى حيث بقيت أبصارهم شاخصةً ساعاتٍ طويلةً ، واتّخذوا طريقهم إلى يَثربَ .

بدأ اللّيل بليداً مُرهِقاً ، وقد أصرَّ سعد على النّوم فوق السّطح ، واضطجع

---

(١) أتوغّل فيها مسرعاً .

(٢) لنرجع من حيث أتينا .

مُرهِفاً السّمعَ ، علَّ رِكزاً[1] يشير إلى عودة النَّبيّ وصَحبه يصِل إلى أُذنيـه ، لكنَّ الشِّبَع بعد صيام النَّهار ، والإرهاق بعد الرّحلة الطّويلة ذَهاباً وإيـاباً ، حَملا النَّوم سريعاً إلى عَينيه ، فراح في سُبات[2] عميق ، لم يُفِقْ منه إلاّ على يـد هنـد تهزُّ كَتِفه بلطف .

فتح سعد عينيه ... كان البدر في غَسَق[3] تلك اللّيلـة من رَمَضـان يسكب نوره بجلال وصمت وبهاء ، وبدا له رأس هند ، وهي جاثية إلى جانبه في هـالـة البدر[4] الشّاحب كرأس ظَبْية صغيرة ... لم يتبينْ ملامحها ... فقد كان ظهرهـا إلى القمر ... ولم تَطُـل بشـاعرنـا الصّغير لحظـة التّـأمُّـل الجميـل تلـك ، ودوَّت الأحداث في رأسه كرعد قاصف ، فاعتدل جالساً ، بينمـا كانت هنـد تقول : قُمْ نتسحَّرْ ... هيّا .

ونهضت بسرعـة ، واستـدارت مبتعـدة ، وقبل أن تهبـطَ الـدّرَج التفتت إليـه : لا تعُد إلى النّوم اتبعني ... عمّتي تنتظر ...

ولم تتلقَّ هند إجـابـة ، فعـادت تقول وهي تغوص هـابطـة الـدّرَج ، حتى تكاد تختفي : قُمْ .. لن أصعدَ إليك ثانيةً .

عـاد سعـد يرفـع عينيـه إلى البـدر الملوّح عنـد الأفـق الغربيّ ، واعترتـه قُشَعريرة خفيفة ، فأمسـك بعَضُـدَيـه بقوّة ، وطَنّ في جسـده كلّـه ، كَجَرَيـان

(١) الرّكز : الصوت الخفيّ .

(٢) نوم .

(٣) ظلمة .

(٤) هالة البدر : دائرة من الضوء تحيط بالبدر .

الـدّم ، سؤال مـوجِـع : تُرى مـا الّـذي يجري هنــاك ؟ وعبرت رأســه صـورة مرعبة ... تخيَّل قُريشـاً المـدجَّجـة بـالسِّلاح تتكالب بخيلهـا على المسلمين ، وهم يجالدونها[1] باستماتة ، لا يمِلكون إلاّ الإيمان ، وسيوفاً مرهَقة قليلـة ، لا يـدعمها غير التَّصميم على الانتصـار للحقّ ... ولاح لـه أبوه يقـاتـل بضَراوة ، وقـد كَلَّت ذراعه ، وبدا الإعياء على ملامحه ...

اعتصر قلبَـه الألم والغضب ، والإحسـاس القـاتـل بـالعجـز ، فـانتفض كمن لدغته أفعى ، في محاولة للتَّخلُّص من هواجسـه[2] وأخيلَتـه المُضنِيـة ، وانـدفع لاحقاً بأخته ...

كانت العمّـة تمضـغ لُقمتهـا في صمت وشُرود ، ذاهلـة عن سعــد الّــذي راح يتصاعـد توتُّره وقلقـه ، حتى إنـه لم يستطعْ مواصلـة الأكل ، فغـادر السُّفرة إلى باب الحُجرة صامتاً ، وقد تجمَّعت في عينيه دموع قاسية كالحجارة ، بدا له أنّهـا لن تتدحرجَ على خدَّيه أبـداً ... وراحت العمّـة تراقبـه بصمت بينمـا هبَّت هنـد لاحقةً به ، وتقدَّمتـه ، ثم استـدارت تواجهـه ، وقـالت بقلق : سعـد ... لِمَ كلُّ هذا ؟

قال بصعوبة : أُحِسّ ... أُحِسّ بالقهر .

وضغط بأصابعه المتشنِّجـة على حَنجرتـه ، وأضـاف وهو يرفع وجهـه إلى السّماء الحالكة : أكاد أختنق ...

---

(١) يضاربونها .

(٢) خواطره .

قالت العمّة بلهجة هـادئـة دون أن تنظرَ إليـه : سعـد ... لا يليق بـك أن تكونَ جَزِعاً هكذا ...

التفت إليها غاصّاً بريقه : أليس قاتلاً أن نكونَ مسمَّرِين هنا ، وهم ...

عاجلته : لِننتظرِ الصّباح ... قد تكون ثمّة أخبار طيِّبة ...

استدار بَغتة : أنا ماضٍ إلى عبد الله .

فزعت هند ، واعترضت طريقه : في هذا الوقت ؟! انتظر ساعة واحـدة ... ثم ما الفائدة من ذلك ؟!

انفجر غاضباً : أريد أن أقومَ بعمل مّا ... أيّ عمل ...

عندما رأت هند صمت عمّتها أدركت أن عليهـا أن تَفسَحَ الطّريق لسعـد ، لكنّها لم تكنْ أحسن منه حالاً ، وعاجلتها الدّموع ، فاندفعت راكضـة إلى عُمق الحُجرة ، بينما انطلق سعد دون أن يلتفتَ إليها ، ولم تحـاول العمّـة مَنْعـه ، بل انتظرت هُنيهـة ، ثم خـاطبت هنـداً ، جـاهِـدةً في محـوِ كلّ أثر لـلانفعـال من صوتها : إلى أين ترينه يذهب ؟

أجابت هنـد ، وقـد لمست في لهجـة العمّـة حنـانـاً وإشفـاقـاً : ربّما يـذهب إلى عبد الله ... يكاد يُجَنّ ... إنّني خائفة .

ـ تعالَي ...

نهضت هنـد مستسلمـة ، واقتربت من عمّتهـا دون أن تنظرَ في عينيهـا ، وهمست : لو يصل خبر عمّا يجري هناك ...

ـ لا بدّ من وصول أخبار هذا الصّباح .

وأضافت بقلق وَشَتْ به لهجتها المتـأنيـة الراجيـة : أصبح الوقت كافيـاً لوصول خبر ...

٧

البشيران

مرّة أُخرى خرج الفِتيـة مـع الشّروق ، متّجهين إلى حيث لبِثـوا سـاعـاتٍ طـويلـةً أمسِ منتظرين . كانت الشّمس الـوليـدة تسيـل بـاستحيـاء على المنحدَرات ، وتغمر أرض الوادي بدفء محبَّب في صباحات الخريف اللّطيفـة ، وكانت الأشجار النّحيلة البـاسقـة المتنـاثرة على السُّفوح الجُرْد[1] ترتعش بصمت واحتراس .

اتّجه الفِتية إلى أعلى مَشْرَف يكشِف لأعينهم الطُّرقـات المؤدّيـة إلى يَثربَ . قال ابن عُمَر بلهجـة قـانطـة : كثيرون أمسِ قرّروا الخروج إلى هـذه الأنحـاء ، علّهم يجِدون قادماً يزوّدُهم بخبر .

مسح سعد المكان بعينيه ، ثم قال متأفّفاً : أين هؤلاء ؟

قـال عبـد الله : ومن ينبعث مثلَنـا هكـذا قبل طلـوع الشّمس ! لن يلبثـوا أن يأتوا ...

قال ابن عُمر : لن يصلوا إلى هنا قبل ارتفـاع الضّحى ... هكـذا اعتـاد النّـاس عندما يخرجون لانتظار قادم .

قال سعد : إننا ننتظر دون أمل .

(١) الخالية من النبات .

نظر إليه عبد الله متفرّساً[1] ، وقال بلهجة فيها تأنيبٌ رفيق : سعد أنت شديد الخوف !

تدخَّل ابن عُمر : مالك تنسى أن الله معنا ! لا يَجدُر بك أن تكونَ هَلوعاً[2] هكذا ... هل ينتظرون إلاّ النّصر أو الشّهادة[3] ؟

ضغط سعد بكفّيه معاً على وجهه ، وتململ مُحتَداً نافِدَ الصَّبر : ليس هلَعاً ... أنا مقهور ... أكاد أُجَنُّ عندما أتصوَّر الموقف ... سيسمّونه نصراً ، وهو فَخٌ قذر ... وكلّ ذلك يحدث تحت أسماعنا وأبصارنا ، ونحن مكبَّلون عاجزون .

وَجَم الاثنان وأطرقا صامِتَين ... ولم يَزِدْ سعد على ما قاله ... وهاجمت عينيه الدُّموع ، فاستدار بوجهه جانباً ، بينما قال عبد الله ، محاوِلاً تبديد التَّوتُّر الخانق : لا أظنّ أن يمضيَ اليوم دون وصول خبر مّا ...

أجاب ابن عُمر مُصَدّقاً : لا شكَّ في ذلك ... لا بدّ من عابر سبيل ...

استلقى سعد متهالكاً[4] على الرّمال ، مُوَلّياً رفيقيه ظهره ، بينما جلس الاثنان إلى جِذع فتِيّ ، وغرِقا في صمت مُمِلّ حمل النُّعاس إلى عينَي عبد الله .

---

(١) متمعّناً .

(٢) شديد الجزع .

(٣) ينتظرون من جهادهم أحد أمرين : إمّا أن ينتصروا ، وإمّا أن يُستَشهَدوا . وكلا الأمرين كسب عظيم ، لذا فالجزع عليهم مستنكر .

(٤) مرتمياً في لهفة .

فجـأة مـدَّ ابن عُمر يـده إلى سـاعـد صـديقــه المهـوِّم[1] إلى جـواره ، وهتف : انظر ... أليس ثمّة أحد في الأفق ؟

انبعث سعـد مع العبـارة ، وهبَّ متعثِّراً بثـوبـه ، يُحِـدّ البصر[2] إلى حيث أشـار ابن عُمر ، وسُرعـان مـا اصطفّ الثّلاثـة ، وقـد تعلّقت عيـونهم المتعطّشـة بـالأُفق البعيـد . وصرخ سعـد وهـو يـزفِر كمن يُلقي عن كاهلـه حمـلاً ثقيـلاً : أخيراً ... ثمّة أحد في هذا التّيه ...

ـ فارس منفرد !!

ـ فارس ! من ذلك الفارس المنفرد المتَّجه إلى يَثربَ ؟!

ـ هل مع النَّبيّ فُرسان ؟

ـ هناك واحد أو اثنان ...

بدأت تصل أسماعَهم نقَرات حوافر الجواد ، ثم ازدادت وضوحاً وغزارة ، وهو يقترب أكثر فأكثر .

هتف سعد : يركبه اثنان ...

وراح الفرَس يتّجـه مبـاشرة إليهم كأنـه يقصِـدهم ، فـاتّسعت العيـون ، واحتبست الأنفـاس ، لحظـة بـدأ الفـارس في المقـدّمـة يجـذِب لِجـام الفرس ، وانطلقت من الحناجر كلّها في وقت واحد : أنتم ؟!!!

ـ أنتما ؟!!!

---

(١) المترنّح الرّأس من النُّعاس .

(٢) ينظر نظرة انتباه .

تقافز الرِّفاق ، بينما راح زَيد وابن رَواحة يردِّدان معاً كطفلين جَذِلَين : انتصرنا عليهم ... هُزِمَت قُريش ...

وتصايح الرِّفاق : حقّاً !! والجيش ؟ هل أرسلت قُريش جيشاً ؟

ـ جيش كبير .

ـ وقاتلتموهم !!!

ـ وهزمناهم ... فضل الله ونصره ورحمته ...

صاح عبد الله : لكنَّكم لم تخرجوا للقتال ... والنّاس في يَثربَ تغلي غيظاً وقلقاً .

ـ كانوا أضعاف أضعافنا ، عدداً وعَتاداً[1] ، لكنَّ الله كان معنا ... قُتِل أبو جَهْل وعُتبة وشَيبة وابن خَلَف ، قُتِل رؤوس الشِّرْك والظُّلْم والشَّرّ ، وأُسِر الكثيرون ... لو نظرتم إلى الأسرى لَخِلتم أنّ أحداً لم يُقتَلْ ، ولو نظرتم إلى القتلى لقلتم إن أحداً لم يُؤسَرْ[2] .

صَخِبَ الرِّفاق : فأين النّاس ؟

ـ ما زالوا في المَيدان ... سبقناهم لنبشِّرَ أهل يثربَ بالنَّصر .

تشبَّث سعد بذراع زيد الأسمر القويّ ، ورفع إليه عينين قلقتين : هل تعرف شيئاً عن أبي ؟

(١) العَتاد : الأسلحة والخيول وأدوات الحرب .

(٢) ذلك لكثرة كل من هؤلاء وهؤلاء .



قال سعد : ألا نستطيع مرافقتكم ؟

قاطعه زيد : علينا الإسراع ، وليس بإمكاننا اصطحابكم .

وهنا أحدق الفِتية[1] بإلحاح بالرّجلين ، كلّ يسأل عن ذويـه ، وأدرك الرّجلان أنْ لا مَنـاصَ من التّلبُّث ريثما يجيبـان عن أسئلـة الفِتيـة . وقـال زَيـد يحسِم الأمر : اسمعوا ... لم يُستشهَد إلاّ أربعـة عَشَر رجلاً نعرفهم بـأسمائهم ... وجـال بعينيه بينهم .

كانت تلك من أطول اللّحَظات وأقساها على عبـد الله ... فـابن الخطّـاب يعرفه الفارسان ، وأبو السّعد يعرفه زَيد ، وهتف دون تفكير : وأبي ؟؟

اقترب سعد الّذي كان يقف خلف عبد الله بحركة غريزية ، كأنّما ليقيَ صديقـه خطراً قد يتهدّده ، وأمسك بكتفيه ماداً رأسه عن يساره : أُسَيد ... يُكَنّى بأبي عبد الله .

وكان السّؤال والتّعقيب قَصْفَتَي رَعد تلاهما فراغ وصمت هائلان ... ومرّت ثوانٍ كأنّها دهر ، قبل أن ينطقَ زَيـد ، وتبـادل وابنَ رَواحـة نظرتين متسـائلتين : أُسَيد !! ليس فيمن استُشهِدوا مَن يُدعى أُسَيداً .

وتحوّل الموقف إلى عناق حارّ طويل ، بينما استدار زَيد وابن رَواحـة على عجل يريدان امتطاء الفَرس . ثم تلفّت زَيد حوله وسأل : أنتم وحدكم هنا ؟

ـ خرجنا مبكّرين . قد تلقَيان النّاسَ بعد قليل ...

ـ أو لم يمرَّ بكم البَدْو ؟!

ـ لم نرَ أحداً ...

---

(١) أحاطوا .

تدخَّل ابن رَواحة مستعجلاً ، موجِّهاً حديثه إلى زَيد : لا أظنُّهم وصلوا إلى هنا ... تعرف كيف يسيرون ... هيّا بنا ...

سأل ابن عُمر على عجل : ما شأن البَدْو ؟!

أضاف عبد الله : هل ساندوا قُريشاً ؟!

قال سعد : أوَ يعيدون الكرّة !... أوَ لم نؤدِّبْهم !؟

قال زَيد عجِلاً : لا ، لا ... كانوا يتفرَّجون ... تفرَّجوا على القتال ...

استعجله ابن رَواحة : هيّا بنا يا زَيد ...

والتفت إلى الفِتية : لن يلبثوا حتى يصلوا ، يمكنكم مرافقتهم ومعرفة كلّ شيء منهم ، فهم رُواة مَهَرة ، ولن يبخلوا عليكم بالتّفاصيل .

قال سعد : ألا نستطيع مرافقتكم ؟

قاطعه زَيد : علينا الإسراع ، وليس بإمكاننا اصطحابكم .

مدَّ ابن عُمر يده يحجز زميليه ، وقال للفارسين : سيرا على بَرَكة الله ، بشِّرا النّاس ... وسنتدبَّر أمرنا ، فالطَّريق ليست طويلة .

شيَّع الرِّفاق الفارسَين بنظَراتهم ، وهم مسمَّرون في أماكنهم ، بينما انطلق الجواد ينهب الأرض بالنَّبأ المفرِح متَّجهاً إلى يَثربَ .

التفت سعد إلى رفيقيه ، وهتف منحنياً ، ضارباً ركبتَيه براحتَيه ، في حركة تَفيض بالمرح : انتصَروا ... أيها الفِتيان ... انتصَروا ... انتصَروا ... انتصَروا .

وهجم على عبد الله يحتضنه ، في حين قفز ابن عُمر فوقهما ، وتدحرج الثّلاثة أرضاً وهم يضحكون جَذِلين ، ثم اعتدل ابن عُمر قائلاً : يالِنصر الله ... نصره الّذي وعَدَنا ... ورفع كفَّيه : نحمَدك ... نحمَدك ... نحمَدك ...

وصاح سعد ممسكاً بطرفي ثوبه : هيّا ، فلنلحقْ بهما لنرى فرح النّاس .

وراح يركض ، فتبعه عبد الله ، بينما ظلّ ابن عُمر في مكانه ، وقد عقد ذراعيه على صدره ، ورسم تساؤلاً متهكّماً على وجهه ، وصاح بهما : هل تركضان حتى يَثْربَ ؟!

توقّف الفَتَيان فجأة ، وتلفّت كلّ منهما إلى الآخر ، ثم استدارا معاً إلى ابن عُمر في وقفته السّاخرة ، وانطلقوا جميعاً ضاحكين ، وهم يبدؤون الخُطُوات الأولى على الطّريق إلى مدينة رسول الله السّعيدة ...

٨

شهود عِيان

لم يطلِ المسير بسعد ورفاقه أكثر من دقائق معدودات ، حتى لاحت في الأُفق طلائع البَدْو العائدين من بَدر ، فلبث الرِّفاق في مكانهم منتظرين وصولهم ، ورحَّب أولئك بهم ، وأردفوهم[١] في الطّريق إلى مشارف يَثربَ ، حيث ينصِبون خيامهم .

كان سعد يعتلي حِلساً[٢] متهرِّئاً ، على ظهر ناقة عجفاء ، يشاركه فيه شيخ مَعروق[٣] أسمر ، ذو لحية مدبَّبة ، استولى عليها الشَّيب . وفتًى ذو ذؤابتين[٤] فاحمتين قصيرتين ، له عينا نَسر جارح ، لا يكاد يستُر جسده إلاّ قميص منزوع الكُمَّين ، اصطبغ بلون الصَّحراء .

يعتبر سعد نفسه محظوظاً ، لكن حظّه اليومَ كان في أَوْج تألُّقه . فمنذ اللَّحظة الأولى التي أردفه فيها هذا الشَّيخ المتعطِّش إلى الكلام راح يُصبّ عليه سيلاً من الأسئلة ، تحبُّباً وتقرُّباً .

---

(١) أركبوهم خلفهم على الجمال .

(٢) الحلس : ما يوضع على ظهر النّاقة تحت الرّحْل .

(٣) نحيل الجسم .

(٤) الذؤابتان : شعر مقدم الرأس المفروق فرقتين . والواحدة ذؤابة .

قال الشّيخ : أمِن أهل يَثربَ ، أم من أهل مَكّةَ ؟

أجاب سعد مبتسماً ، وهو يستعيد توازنه خلف الشّيخ النّاحِل : مِن أهل مَكّةَ .

ـ فأنتم المهاجرون .

ـ أجل ...

ـ كنت ورفيقاك تقصِدون بَدراً للتّفرُّج على المعركة ؟

ـ كنا ننتظر عودة النّبيّ والمجاهدين ... لم يكنْ أحد متيقّناً أن معركة ستقع .

ـ آه ... وقعت ... وكانت معركة عجيبة ... عجيبة ... أنا تابعتها ... رأيت كلّ شيء ... كنّا في الجوار ... نحن مَن أخبر الآخرين واستدعاهم لشُهود المعركة .

ـ شهِدتم المعركة كلّها ؟

ـ كلّها ... كنّا هناك منذ أن عَسكر نبيّكم بالنّاس على البئر[1] ...

ـ خرجوا للاستيلاء على قافلة أبي سُفيان ... إنها أموالنا التي سلبوها بعد هجرتنا .

ـ سمعنا بهذا ، سمعنا ... لكنّ قُرَيشاً أرادت مفاجأتكم دون استعداد منكم ، ظانّة أنها بهذا تستطيع سحقكم من الجولة الأولى ... لقد أرسلت إليكم خِيرة فرسانها ورجالها .

---

(١) أقام معسكراً بجوار البئر .

ـ إن الله معنا ... وقد رأيتم كيف هزمناهم !...

قال الشّيخ مُبدياً إعجابه : آه ... شَرّ هزيمة !

ـ وكم استمرَّت المعركة ؟

ـ أربع أو خمس ساعات ...

ـ وكيف كانت البداية ؟ قُصَّ عليَّ ما جرى منذ اللّحظة الأولى .

ـ كمعظم المَواقع . بدأ الأمر بمبارزات فرديّة ... وقد انتصر فرسانكم ...

ـ والالتحام ؟!!

ـ كالبرق ، ثمّ كالبرق ، خاطفاً عنيفاً صاعقاً ... عَجاج[1] قاتم مُريع ... هم ألف وربما يزيدون ، وأصحاب محمّد ... كم كنتم ؟ لا تزيدون على مئتين أو ثلاثة ، أليس كذلك ؟

هزَّ سعد رأسه لئلاّ ينقطعَ الحديث الشَّيِّق ، وأضاف الشَّيخ : مع ذلك انجلت المعركة عن عَشَرات من القتلى والجرحى والأسرى من قُريش ...

ـ هل هناك الكثير من الأسرى ؟

ـ الكثير الكثير ... فقد ترى مع الرَّجل الأسيرين أو الثّلاثة ... كما قد تراه مُوقراً بالغنائم ، ولهذا السَّبب قد يتأخّرون في طريق العودة إلى يَثربَ ...

ـ حدّثني أكثر ...

---

(١) غبار .

قال الشّيخ بارتياح وترحيب : أُحدّثك ...

التفت الفتى الصّامت ذو العينين الصّقريَّتين نصفَ التفاتة إلى يمينه ، وقال ممازحاً : سيحدّثك حتى آخر اللّيل ...

أجفل [1] سعد ، وسأل وقد نبّهته جملة الشّاب إلى بُطء المسير : وهل نبقى في الطّريق حتى اللّيل ؟

لم يُجِبِ الشّابّ ، وانبرى الشّيخ قائلاً : لا ، لا ... لن نبقى ... هذا الولد لا يعرف شيئاً .

تنفّس سعد الصُّعَداء ، ووجّه كلامه إلى الفتى : لقد أخفتَني ، أنا في شوق شديد لرؤية الأفراح في يَثربَ ...

واستدار الشّيخ ، في محاولة لقطع الاسترسال في الحديث بين سعد والفتى ، واكزاً [2] رُكبة سعد من خلفه : ألا أُكمِل لك الحديث ؟

ـ أجل هيّا ...

ـ عسكر محمّد بالنّاس عند آخر ماء مواجه لقُريش ، هكذا ...

ومدّ كفّيه المعروقتين السّمراوَين متواجهَتين متقارِبَتين ... وقف حاجزاً بين الماء وقُريش ...

ـ لكنّ هناك آباراً عديدة ...

ـ هه ... أخفى معالمها ... لم يعُدْ بالإمكان العثور على بئر واحدة ، إلاّ تلك

(١) فزع وانزعج .

(٢) ضارباً بخفّة .

التي نزل برجاله قربها ، وقد حفروا حوضاً جَرّوا إليه ماء تلك البئر . لقد رأينا كيف وصلت قُريش ... زحف فرسانها فوق الكَثِيب ، فأشرفوا من أعلى عليكم ، ثم انحدروا إليكم كالسَّيل ... قلنا : لن يلبثَ هؤلاء أن يغمُروا محمّداً وأصحابه : بجمعهم ، ويسحقوهم ... لكنّكم ... ماذا ؟ الماء وراءكم ، وكلّما اقترب قُرَشي منه رميتموه ... وجيش بلا ماء ... ماذا ؟ جيش هالك ... لكنّ الحقّ أن قُريشاً كانت البادئة بالرَّمي ... أوّل من قُتِل كان منكم ... ثم بدأت المبارزات ، خرج منكم فارسان ... فارسان !!

وتلَمَّظ[1] الشّيخ كمن يستعيد ذكرى طعم شديد الحلاوة ، وأضاف : أقسمتُ ألاّ أغادرَ قبل معرفة من هما .

- فمن كانا ؟

- عمّ محمّد وابن عمّه ...

هتف سعد مَزهُوّاً : حَمزة بن عبد الْمُطّلِب ، وعَليّ بن أبي طالِب .

تدخّل ذو العينين الصّقريتين من جديد : لن تنتهيَ هكذا ... سنصل بعد قليل ...

التفت سعد إلى الشّيخ بابتسامة : عمّاه ، حدّثني مُجمَلاً أوّلاً ، ثم تُحدّثني بعدها مفصّلاً .

قال الشّيخ بامتعاض : أراك تنصاع إلى رغبته .

---

(١) تذوّق وتَمطّق .

وأضاف حَرِداً[1] : ... هِمْ ... لقد تبارزوا ، ثم تلاحموا ، ثم ظهرتم عليهم ... هذا كلّ شيء ...

لم يستطِعْ سعد مقاومة الضّحك ، ومال برأسه جانباً ، يرقُب الفتى من خلف ، وتصوّر أنه يضحك بصمت هو الآخر . فقال يسترضي الشّيخ : أنا أسمعك ... حدّثني كما تريد ، ثم توجّه إلى الفتى قائلاً : ألا تدعه يحدّثني !...

لم يُجِبِ الفتى ، وارتفع صوت الشّيخ مهدّداً : رُؤْبةُ ، إن لم تلتزمِ الصَّمتَ فستنزلْ عن ناقتي ... لن يقاطعَني أحد ، سأتحدَّث كما أريد ...

مرّة ثانية ابتسم الفتى دون أن يلتفتَ ، وعاد الشَّيخ إلى الحديث منشرحاً ، كأنَّ شيئاً لم يكُنْ : تبارزوا واحداً لواحد ، ثلاثة أزواج أو أربعة ... كم زوجاً يا رُؤْبة ؟

قال رُؤْبة : أنا ألتزم الصَّمت .

ـ ذكِّرْني ... ثم اصمُتْ ...

ـ نسيت ... وهل أملِك مثل ذاكرتك ؟

اندفع سعد قلِقاً : أليس ما يقوله واقعاً ؟

قال الفتى بجِدّ : أنا أُمازحه ، إن لأبي ضَمْرةَ ذاكرةً عجيبة ...

قال الشّيخ : تمازحني ؟؟ أأعجبك هذا ؟ شكَّكت الفتى في عقلي أيّها ...

وأسرع سعد يعتذر وسْط شتائم الشّيخ ومُداعَبات الفتى . وضحِكا بحُبور عندما

(١) غاضباً مغتاظاً .

أمسك الشّيخ بِجَيب[1] الفتى من خلف ، وجذبه جَـذبـة قويّـة كادت تُطيحُ بها معاً عن ظهر النّاقة ، ثم عاد يستأنف الحديث من حيث انقطع بأسلوب غريب أدهش سعداً : ثم لم نَرَهُمْ إلاّ وقد التحموا ... وهكذا ... ساعـاتٍ أربع ... أجل أربع أو أكثر قليـلاً ... ثم انجلى الغبـار عن أغرب مشهـد رأيتـه طَـوال عمري : القلّـة الفـائزة تتعثّر بـالقَتلى والجَرحى ، والسّـاحـة تَضيق بـالأسرى ، والأفـق يمتصُّ أشباح بعض الرّكائب المهزومة بمن عليها ، نـاجين بـأنفسهم لا يلتفتون إلى الوراء .

وأضـاف الشّيـخ : نحن من بعيـد لم نكنْ نرى كلّ شيء ... مع أنّ الغبـار كان قليلاً ، إذ لبَّد مطرُ اللّيل الأرض مما عَجَّل بخمود عَجاج المعركة ...

وفي أثناء المعركة كنّـا نرى الرّايـات فقـط ، فنتـابع حركتهـا لنعرفَ كيف تدور المعركة ... كان لكم لواء أبيض لم يُنكَّس[2] قَطُّ .

هتف سعد : إنه لابن عُمَير ... لِمُصعَب بن عُمَير .

قال الشّيخ وهو يهزّ رأسه دَلالـةً على الإعجـاب الشّـديـد : رجل يَعـدِل مـائـة رجل ...

قال سعد بحماسة : الإيمان يجعل كُلاًّ منّا يَعدِل مائة ...

قال الشّيخ بدهشة : وأنت تفهم ذلك !؟

قال سعد بحماسة أشدّ : فكيف آمنتُ إذاً !؟

---

(١) الجيب : فتحة في الثوب يدخل منها الرأس عند اللّبس .

(٢) ينخفض أو يميل .

ـ مع أهلك ... تقول ما يقولون .

سكت سعد يستعرض قصّة إيمانه ... ذكريات المُساجَلات[1] الكلاميّة بين شَيبة وعبد الله ، والأيّام الطّويلة التي كان يقضيها يراقب النّبيّ في المسجد الحرام ، وعبد الله يحاوره بحبّ ، داعياً إيّاه إلى الإسلام ، ودلائل الإيمان الّتي لم تكنْ تَخفى على وجهَي أبيه وعمّته ، والصّحائف ، وعِلّيّة أبيه ، والأسرار الّتي كتمها وهنداً أيّاماً طويلة ، والاعتراف ، والهِجرة ، وقُباء ، وابن عُمر ... ذكريات ... ويالها من ذكريات !!!

واغرَوْرَقت عينا سعد ، وقال بثبات ، وهو يرنو[2] إلى عبد الله على ناقة ليست ببعيدة : أقول ما أعتقد وأفهم ... كلّنا هكذا ، كلّنا آمنّا بعد فهم واقتناع ، وكلّنا نتلقّى تعاليم ديننا ، ونمتثل أوامره كباراً وصغاراً .

وأحسَّ سعد أنه أسهب في الحديث ، وساعده على ذلك إنصات الشَّيخ ، وإصاخة ذي العينين الصَّقريتين ، حتى خُيِّل إليه أنّه يراهما ، ويتحدَّث إليهما ، على الرّغم من أنّ الفتى يوَلّيه ظهره .

واستردَّ سعد اللّحظةَ ، وخاطب الشَّيخ : وماذا بعدُ يا عمّاه ؟

وكان الحديث طويلاً مفصَّلاً شيّقاً ، أنسى سعداً قوارِض الجوع[3] قُبَيل غروب هذا اليوم الحافل من أيّامِ أوّل رمضان يصومه المسلمون .

---

(١) المباريات والمفاخرات .

(٢) يتأمّل طويلاً .

(٣) آلامه .

حـاذى البَـدْو خيـامهم ، وخرجت إليهم مجموعـات من الأطفـال والنِّسـاء مهرولِين ، وكانت يَثرب قـد بـدأت تَلُوح في الأفق ، فخفق قلب سعـد كطـائر سجين فُتح باب قفصه ، وأحسّ برغبة صـارخـة في التَّرجُّل والرّكض حتى فِنـاء مسجد رسول الله ، كان يحتدم شوقاً إلى معرفة ما يجري هنـاك . وأجـال عينيـه يبحث عن رفيقيه ، وتبادلوا التّلويح بالأكُفّ ، وإشارات الفرح .

وأخيراً تـوقَّف الرَّكب وسْط عَجاجـة من الغبـار ، وانشغـل كلٌّ بشـأنـه ، فاجتمع الرّفاق الثّلاثة بلهفة ، وكان همّهم الوحيد الانطلاق إلى البيوت المُحِبّة ، والأحضـان الـدّافئـة ، والفرحـة الّتي تكاد تُرى في سماء يَثربَ من مكانهم هـذا . واتَّجهوا بـأبصـارهم وخطـاهم اللَّهْفى شِمالاً ... لكنَّ صـوتـاً من خلفهم انطلـق : سعد ... سعد ...

التفت الرِّفاق جميعاً ... كان ذا العينين الصّقريتين ، وقد حمل شيئـاً من تمر ووعاء لبن مَخِيض[1] : خذوا تبلَّغوا بهـذا ... وأسرعوا بـالانطلاق لتصلوا بيوتكم قبل حلول اللّيل .

تبـادل الرّفـاق النّظرات ، ورفـع سعـد كَفّيـه ووضعها بـوُدّ على كتفَيِ الفتى العاريتين ، وقال باسماً : نحن صائمون يا رُؤْبة .

بدت الدّهشة على الفتى ، وقال : ولماذا ؟

أجاب ابن عُمر : لأن الله فرض علينا صوم هذا الشّهر .

ـ وكيف صومكم ؟

(١) منزوع الدّسم .



ورفع سعد كَفَّيه ووضعهما بوُدّ على كتفَي الفتى ، وقال باسماً : نحن صائمون يا رُؤْبة .

ـ نمتنع عن الطَّعام والشَّراب من الفجر إلى غروب الشّمس .

ـ وهل كان النّاس في بَدر صياماً ؟

ـ لم يُفرض الصّوم على المقاتل والمسافر والعاجز والمريض ...

لزم رُؤبة الصّمت متأمِّلاً ، فقال سعد : بحثت عنك لأودِّعَك ، فلم أرَك .

ـ أردت أن آتيَكم باللّبن والتّمر .

ـ نأخذ التّمر ، ستغرب الشّمس قبل وصولنا ، فنتبلّغ به ... وسنراك قريباً في يَثربَ ... سأراك في بيتي ... بماذا أُكَنِّيك ؟

ـ بأبي بَصير ...

ـ وهل ثمّة بَصير[1] ؟

ـ بل هو أبي ...

وارتفع صوت ابن عُمر من خلفها : سعد ... ألا ننطلق ؟

ودون أن يجيبَ أو يلتفتَ راح سعد يمشي القهقَرى[2] باتِّجاه رفيقيه ، وهو ينظر إلى ذي العينين الصّقريتين ملوِّحاً بيده ... وفجأة برز من خبايا ذاكرته الفتى حِصْن[3] ، وتقاطعت الصّورتان ، صورة رُؤبة وصورة حِصْن ، وتداخلتا حتى خُيِّل إلى سعد أنها صورة واحدة ، دون أن يعرفَ لذلك سبباً .

(١) هل لديك ولد يدعى بصيراً ؟

(٢) يمشي إلى الخلف .

(٣) فتى التقى به في طريق الهجرة . الطريق إلى يثرب ص ٧٢ ـ ٧٧ .

سـار الرّفـاق مهرولِين حينـاً ، متبــاطئين آخر ، وكانـوا يتبــادلـون شتّى الأحـاديث ، وأحسّ سعـد أن صورة ذي العينين الصّقريتين تُلِـحّ على مُخَيِّلته بإصرار غريب ... كان في عينيه كلام مكتوم ... كأنّـه يريـد أن يقولَ شيئـاً لم يُسعِفْـه الـوقت[1] ولا الظّرف بقـولـه ، شيئـاً لا يريـد أن يسمعَـه أحــد سـوى سعد ...

---

(١) لم يساعده الوقت لضيقه .

٩

يومئذ يَفرح المؤمنون(١)

عندما انطلق سعد ورفاقه إلى المضيق صباح هـذا اليوم ، كانت غلائل من القلق والأسى تُسربل يَثربَ كلّهـا ، فقـد أغفت مـدينـة رسول الله على هواجِسَ زادت من وطأتها متابعة شعلة الحياة التي تخبو شيئاً فشيئاً في صـدر ابنـة النَّبيّ ، وهي في مُهاجَرها ذاك ، ورسول الله في مَجاهل الصّحراء ، يواجه بالقلّة المؤمنة تآمر وخداع الكفر والشِّرك .

أمّا في أوكار يهودَ الحاقدة ، فقد كانت ثمّـة ضحِكات صُفر ، وأمـانيّ دنيئـة ، وكؤوس خبيثة تُشرَب احتفالاً بالمصائب الّتي تنال محمّداً والمسلمين تِباعاً .

وفي هذا الصّباح امتدَّت خيوط الشّمس الباهتة الحنون ، تغمر المـدينـة الّتي تمضغ قلقها بصبر جميل آمل ، وكأنّها تهمس للنّاس مُواسية : لا بأسَ عليكم ، أيّها المؤمنون الصّابرون الصّائمون ، فعسى أن يبدّلَ الله همَّكم بِشْراً وسروراً .

وفي منبسَط البَقيع راح أُسامـة يهرول متعثّراً مُرهَقـاً ، خلف بِضعـة رجـال يسـايرون عُثمانَ بن عَفّـانَ ، وقـد وَلَّوا ظهورهم جميعـاً التّراب الّـذي ضمّ جُثمان ابنـة رسول الله . وكان شيء ثقيل كالصّخرة يجثُم على صـدر أُسـامـة الصّغير ... ماتت ! رآها تنطفئ بصمت ، كان الأمر أبسط ممّـا تصوَّر ... لكنّـه حزين من

(١) جزء من آية كريمة .

أعماقه ، لا شيء في عالمه إلاّ الحزن ... إنه بحاجة إلى من يتحدّث إليه عن همومه : أين هم ؟! ألم يعودوا بعد ؟! أحسّ طعماً يشبه انكسار اليتم .. لا أحدَ هنا ، والده ، النّبيّ ، رفاقه ... حتى أمّه لم يرَها اليوم .

وراح يركل الرّمل والحجارة الصّغيرة وهو يشتمُ قُرَيشاً باشمئزاز ... ووسَط ضجيج أفكاره بدأ يتّضح لغَط وهمهمة لم يلبثا أن سيطرا على الجوّ ، فرفع عينيه عن مواطئ قدميه ، فشدّتا إلى البيوت الّتي ما زالت بعيدة . كان هناك أكثر من شخص يهرول نحو المشيّعين العائدين في ابتهاج بدا غريباً في ذلك الجوّ الكئيب .

شقَّ أُسامة طريقه إلى المقدّمة ، متجاوزاً الرّجال الّذين سمّرتهم الدّهشة ، ووصل إلى مسامعه صوت أوّل القادمين وهو يندفع ، مثيراً الرّمال بقدميه العاريتين ، صائحاً كالمجنون : الله أكبر ... الله أكبر ... هُزِمت قُريش ... الله أكبر ...

لم يفهمْ أُسامة بعدها شيئاً ، اختلط التّكبير بصيحات الفرح والتّهليل ، وطغى ضجيج كموج عاتٍ[1] رفع جسده الصّغير على سطحه ، حاجباً عنه كلّ ما يثور في الأعماق . وكظامئ في رَمْضاء[2] لاهبة أُلقِيَ به فجأة في لُجّة[3] نبع صاف غمر روحه وجسده بالبرد والسّلام ، اتّسعت عينا أُسامة ، وغامت المرئيّات في غلائل من الدّمع الغزير الّذي حجبَ كلّ شيء .

(١) جبار .
(٢) الرّمضاء : شدّة الحرّ .
(٣) غَمرة .

رفع أُسامة يديه المتَرَّبتين إلى عينيه على عَجل ، فلم يكنْ ثمّة وقت للدّموع ، لم يركضْ باتّجاه البشير ، فقد سبقه إليه الرّجال ، بل انحرف يميناً ، مختاراً أقصر الطّرق إلى أقرب بيت من بيوت أصدقائه ، وراح يصيح مهتاجاً : عبد الله ، عبد الله ... لقد نسي أن الخبر إنّما أتى من هنا ، وأن عبد الله ما زال في الصّفراء ، لم يفطنْ لذلك إلاّ عندما رأى ذوي عبد الله ، كسائر أهل يَثربَ ، قد انتشروا في الفُسحة المجاورة ، ينعانقون وسْط دموع وزغاريد الفرح .

وفي المُصَلّى كان النّاس يتزاحمون حول أحدهم صاخبين ... ووصلت الكلمات والعبارات إلى مسامع أُسامةَ الصّغيرِ ... أسرى ... قَتلى ... هزيمة ، وتبيَّن أُسامة فجأة صوت أبيه ، وهو يهتِف بغِبطة : قُتل عُتبة ، وشَيبة ، وأبو جَهْل ، وابن خلَف(١) ... فهتف مدفوعاً بأحاسيسَ لم يستطعْ تحديدها : أبي ... أبي ... وراح يشُقّ الجمعَ باهتياج ، وهو يهجِس : أبي ... أبي ...

اعتنق الحِبّ وابن الحِبّ ، والتصق أُسامة بجسد أبيه المغمور بالغبار والعرق ، وراح يُقبِّله بشغَف ، وهو يكرِّر ضاحكاً باكياً : أصحيح هذا ياأبي ؟!

وتحسَّس زيد جسدَ أُسامةَ الصّغيرِ الأسمرِ بشوق وحبّ ، وقد أشرقت أساريره ، كبدر انزاحت عنه لِبَد من الغيوم(٢) ، وقال وهو يضمّه إليه من جديد : نعم والله يابُنَيّ ، وقد أرسلني النّبيّ بالبشرى ... ولن يلبثوا أن يَصِلُوا .

---

(١) من كبار سادة قريش .

(٢) غيوم متلاصقة ومتراكمة ومتداخلة .

كان الفرح يتقافز في بيوت وطرقات المدينة ، وصدور أهلها ، كطفل مدلَّل انطلق في فَورةٍ مجنونة يتمرّغ في الأرض ، ويرتمي على الأرائك ، ويقذف بالوسائد ، ويصرخ بجذَل هائج لا حدودَ له . وراحت الزّغاريد تُومِض من هنا وهناك ، كأسهم ناريّة تنطلق فتضيء السّماء ، ثم تهمي[1] على الأسطحة والأزِقّة وأعالي النَّخيل مطراً من الفرح ، يذوب في الرِّمال الدّافئة العطشى ، فيغرقها ببرد الأمل والنَّشوة . لكنَّ الإسلام كان قد علَّمهم أن يَقرِنوا شعورهم الفوّار بتلك الكلمات التي خلَّدها الزّمان على الشِّفاه المؤمنة : الحمد لله ... الحمد لله .

راح النّاس يترقّبون عودة النَّبيّ ورجالِهم بفارغ الصّبر ، وبعزيمة مَن قرَّر التَّلذُّذ بالشُّهد مهما بلغت المرارة الّتي ترافقه . فقد كان لا بدَّ أن ينقلَ إليهم البشيران أن بعضاً ممن غادروا إلى بَدر لن يعودوا مع العائدين ... لقد ودَّعوا إخوانهم ، وحمّلوهم الشّوق والتَّحيّة إلى الأهل في يَثربَ ، واتَّجهوا إلى الله من هناك بجراحهم العطرة ، وقلوبهم المضيئة ، فكانوا السّابقين إلى جنّة الخُلد ، شهداء يظلّ عبير دمائهم الذّكيّة يَترِف الأرواح إلى الأبد ...

---

(١) تتساقط وتسيل .

١٠

زغاريد ودموع

لم تكنْ هند نائمة عندما طرقت أسماعَها الزَّغاريدُ الّتي كانت ترِنُّ في الأفق ، واصطِفاقَ الباب[١] المجاور ، ولَغَطُ المتصايحين[٢] : هُزمت قُريش ... هُزمت قُريش ... هُزمت ... وسُرعان ما وجدتْ نفسها تقف إلى جانب العمّة على عَتَبة الدّار ، ولم يلبثِ الصَّغيران أن انفلتا عَبرَهما إلى الخارج بأقدامها العارية ، كعصفورَين فُتح باب قفصهما فجأةً ...

التقت عينا العمّة بعينَي هند ، كانت العيون تتساءل ، وقد غَصَّت بدموع الفرح ... واعتنقتا طويلاً ، دون أن تعرِفا أكانتا تضحكان أم تبكيان ؟ وهتفت رُقَيّة : أسمعتِ ؟ هزَّت هند رأسها إيجاباً ، وهي تضحك : يقولون هُزِمت قُريش ...

ـ لم تكُنْ إشاعاتٍ إذاً ... لقد أرسلوا جيشاً ...

عادت هند تهزّ رأسها مؤكّدة بثقة : وهَزمناه .

ـ أين سعد ؟ أين سعد ؟

قالت هند ، وهي تضرِب كفّاً بكفٍّ : يالِسعد ! أليس في المَضيق !!

---

(١) تكرار فتحه وإغلاقه مع إحداث صوت قوي .

(٢) أصواتهم المختلطة المبهمة .

- تُرى هل عَرَف ؟

- وبَرّةُ ؟ لاشكَّ في أنّها قد سمعت ... إنها تكاد تموت كَمَداً [1] ...

عنـد هـذه العبـارة هبـط فجـأةً صمت آسٍ ثقيـل ، وتبـادلت هنـد والعمّـة نظرتين سريعتين ، كانت كلٌّ منهما تحاول إخفاء قلقها وجزعها ... لقـد انقضت فَورة الفرح ... ودون مقدّمات بدأتا تفكّران بالأحبّـة الّـذين قـد لا يعودون ، وحـاولت كلّ منهما مُـداراة قلقهـا ، فمـدَّت العمّـة بصرهـا تبحث عن الصَّغيرَين اللَّذَين ابتعدا . وقالت وهي تتجنَّب النَّظر في عَينَي هند : أنا ذاهبة إلى بيتي ، عندما يعودان قولي لهما أن يلحقا بي . أمّا هنـد فقـد استـدارت داخلـة الـدّار ، وهي تلقي بعِبارة قلِقة مقتضَبة : سأغطّي العجين ، ثم ألحق بك .

دَلَفت هنـد إلى الـدّاخـل [2] ، وأغلقت البـاب بظهرهـا ، ثم خطت بضـع خطواتٍ بطيئةٍ ثقيلة ، وهي تجول بعينيها في أرجاء المكان : أمـأتمـاً [3] سيَشهَـد هذا الفِناء أم عُرساً ؟؟ وفي لحظـة خـاطفـة ارتسمت في مُخيّلتهـا الصّورتـان ، وكان وجه بَرّة أبرز ما في كِلتيهما ... أمّا سعد !! وكأنّما وجـدت مـا تتعلّق بـه : يالِسعد !! كم هي بحاجة إليه الآن ! أكان لزاماً ألاّ يشاركَها هذه اللّحظات ؟!

وعـادت إلى البـاب مُهتـاجـة : يجب أن أعرفَ أين سعـد ... وتـذكّرت العجين ، فارتدَّت إلى الحُجرة ، فألقت عليـه دِثـاراً آخر ، وهرولت إلى البـاب من جديد .

---

(١) تموت لشدة الحزن .

(٢) دخلت تمشي رويداً بخطوات متقاربة .

(٣) المأتم : اجتماع الناس في حزن .

التقت هند وعمّتُها ثانية ، كانت تقف ببابها وقد بدا عليها قلق واضح ... كلتاهما كانت تنتظر ... هند تنتظر سعداً وأباها وياسراً ، والعمّة تنتظرهم وتنتظر زوجها ... وفجأة ، وكمن تذكّر شيئاً جديراً بألاّ يُنسى ، هتفت هند : عمّتي ... أمُّ أيّوبَ ... تُرى ماذا تفعل الآن ؟ وأبو أيّوبَ ... تُرى ... ؟! وأضافت بحزم ، وهي تمضي إلى الدّاخل : أنا ذاهبة إلى أمّ أيّوبَ .

وقبل أن تجيبَ العمّة انطلق وسْط بشائر الفرح صوت نائح مفجوع ، انقبضت له القلوب ، وحمل خوفاً صامتاً إلى أعماق هند ، وفي تلك اللّحظة برزت بَرّة شِبهَ مهرولة ، عن يمين أَجَمة النَّخيل العقيم عند التّلّ الصَّغير ، حتى إذا ما لمحت هنداً والعمّة راحت تلوّح بجَذَل ، وتحوَّلت هرولتها إلى ركض لاهث . ولم تتمالَكْ هند أن تندفعَ نحو بَرّة ، وقد انتقلت عَدوى الفرح إلى كلّ ذرّة في جسدها وروحها : ماذا هنالك !؟ ماذا ؟؟

ولم تعبأْ بَرَّة بالمسافة الكبيرة الّتي ما زالت تفصِلها عن هند ، بل انطلقت تُكرِّر بحبور : أبوكِ عائد ... عائد ...

ـ أبي ؟ متى ؟

ـ انتصَروا ، هُزِمَت قُريش ...

ـ وأبي عائد ؟

ـ إنهم عائدون ...

راحت هند تقفِز في مكانها ملوّحةً بكلتا يديها ، ثم نكصت على عَقِبَيها[1]

---

(١) رجعت إلى الخلف .

كالبرق نحو العمّة الّتي سمعت كلّ شيء : عمّة ... أبي عائد ... تقول عائد ...

واستقرَّت أخيراً أمام عَينَي عمّتها الفرِحَتين . وبسطت العمّة راحتيها على صدرها ، وهي تأخذ نفَساً عميقاً وراحت تردّد بصوت متهدّج : الحمد لله ... الحمد لك يا ربّ ... الحمد لك ...

لم تنتبهْ بَرّة إلى الأصوات المُعْوِلة عن يمينها ، والأبصار التي خَبَت فيها الفرحة ، وهي تتّجه إلى دار آل عَفراء ، وهتفت وهي تقرأ قلقاً مكتوماً في عَينَيِ العمّة : وأبو العَبّاس ... قادم ... هَزمناهم يا رُقَيّة ... هزمناهم ... استُشهِد منّا أربعة عَشَر ، زَيد في المُصلّى ، أرسله النَّبيّ بشيراً بالنَّصر ... والدي كان هناك ... ليس في الشُّهداء أبو السَّعد ولا أبو العَبّاس .

ثم رمت ببصرها إلى الدار المجاورة ، وهمست بأسف : وصلهم النّبأ .

سألت هند : مَن الشّهيد ؟

التقطت بَرّة أنفاسها ، وازدردت ريقها رافعةً إصبَعَها : اثنان ... مُعَوِّذ وأحد أخوَيه ... لم أعُدْ أذكر اسمه .

قالت هند واجمةً ، وعيناها على الباب المجاور المُشْرَع إلى الطّريق[1] : أسمعُهم يذكرون عَوْفاً .

قالت العمّة : يا لِجَزَع الأهل للفِراق ! أما هما فشهيدان يَنعَمان بما وعدهما الله من خير وفضل ...

---

(١) المفتوح .

وتجمَّدت الفرحة في العيون ، واقتصر الحديث على أسئلة وإجابات مقتضبة ، يتخلَّلها صمت متوتِّر . وقالت هند : بَرّةُ ... ماذا عن ياسِر ؟

قالت بَرّة كمن يحاول التّذكُّر : ياسِر !! ياسِر !!

ـ وأبو أيّوبَ ؟ وأبو الفَضْل وأبناؤه ؟

ـ أبو أيّوبَ ؟...

وحسمَت تَردُّدها وهي تركِّز سَبّابتها على صدر العمّة : الشُّهداء معدودون ، ولا أذكر أنَّني عرفت إلاّ ابنَيْ عَفراء ، وهناك حارثةُ بن سُراقة ، و ... واحدٌ من بني الحارث ، لا تعرفِانها ...

قالت بَرّة هذا ودارت حول العمّة ، ووَلَجَتِ[1] الدّارَ ، ثم ارتدَّت بحركة عَفويّة ، وسألت هنداً : هل أعددتِ العجين ؟

ردَّت هند : أنا قادمة .

ثم التفتت إلى عمّتها التي انهمكت باستدعاء صغيريها ، وقالت لها : أنا ذاهبة الآن إلى أمّ أيّوبَ ... وسأسأل عن سعد ... سأمرّ ببيت عبد الله لأسأل ...

قالت العمّة ، وهي تدفع بِمُصعَبٍ وعُتبةَ إلى الدّاخل ، وتستدير للّحاق بها : أخبري بَرّة بذلك ... ولا تتأخّري ، فيجب أن تساعديها في إعداد الطّعام ، قد يصل أبوكِ اليوم .

زفرت هند كمن تخلَّص من عِدّة أحمال ثقيلة دُفعةً واحدةً ... أخيراً جاء

(١) دخلت .

مـا يَشغَـل العمّـة عن التّسـويف في زيـارة أمّ أيّـوبَ ، وصـاحت بـانطـلاق : أجل ... أجل ... سأفعل .

ولحقت بِبَرّةَ هـاتفـةً : أعـددتُ العجين ... سـأذهب بعضَ سـاعـة إلى أمّ أيّوبَ ...

ـ قد يصِلُ أبوكِ في أيّة لحظة ، وعلينا القيام بأعمال كثيرة ...

لن أمكثَ هناك إلاّ قليلاً .

ثم استـدارت على عجل : أعـددتُ العجين والتّنّور ... اخبِزي ريثما أعود فنطهو الطّعام معاً .

وأغلقت الباب من خلفها ، واندفعت تقفِز في الطّريق الطّويلة المستقيمة باتّجاه حيّ بني النّجّار .

١١

غنائم وأسرى

غَرَبت شمس يـوم بَـدر العظيم عن السَّهـل المرهَـق ، وران صمت كصمت القيلولة[١] ، كان الجميع في المنبسَط المحيط بمركز القيادة بحاجة إلى ذلك الهدوء ، ليستعيـدوا أنفـاسهم ، الّتي قطّعهـا نهـار طـويـل من العَنـاء والنَّصَب . وكان رسول الله والمؤمنـون في مِهرَجـانِ نَشـوةٍ رُوحيّـةٍ خـاشع ، يتـذوَّقـون حـلاوة الطُّمأنينة إلى رضا الله وحمايته وتأييده ، ويستمتعون بنعيم الإيمان ، الّذي يطهِّر الأرواح والأجساد ، ويسمو بها إلى سعادة لا يعرفها إلاّ مَن تـذوَّق سلام وحلاوة الإيمان . أمّا قريش فقد تلقَّت صفعة قصَمت ظهر كِبريائها ، فتشتَّتت فلولهـا[٢] في عُرض الصَّحراء ، عائدة بالنَّبأ الفاجع إلى مَكّـة ، بينمـا ثَوى[٣] سـادتهـا ، بين أسير يعـاني هَوان الخضـوع والانكسـار ، وقتيـل في ثُلَّـة[٤] من مُرفَّهِي القـوم ، تَغَصّ بجثثهم بئر مهجورة في تلك الفلوات البعيدة .

وأرسـل النَّبيّ زَيـد بن حـارِثـة وعبـد الله بن رَواحـة إلى المـدينـة مُبَشِّرَين بالنَّصر ، وأقام هو بالمسلمين في بَدر أيّـامـاً ثلاثـة ، لتنهَلَ الأرواح من نُعَميـات

---

(١) القيلولة : نومة أو استراحة في منتصف النهار .

(٢) تفرَّقَ أفرادها منهزمين .

(٣) أقام واستقرّ .

(٤) جماعة من النّاس .

الإحساس برضى الله[1] ورعايته وحمايته ، وتنعَم الأجساد بدَعة الرّاحة[2] بعد طويل عَناء ونَصَب .

كان بين المنتصرين مَن قَتل مشركاً أو أكثر ، وغَنِم ما في حوزته من سلاح وركاب ومال وحُلِيّ ثمينة ، وثياب ، وكان هناك من أسر مشركاً أو أكثر ، فحُقّ له طلب الفِدية من أهله في مَكّة ، بحسَب قانون الحرب في ذلك الزّمان والمكان . وعاش الجميع عيداً يُضارع فرحة النّصر ، عندما بدأت الخُطُوات الأولى على طريق العودة إلى يَثربَ .

كان العائدون يتقدّمون ببُطء ، مثقَلين بغنائمهم وأسراهم المصفَّدين ، وكان مُعظَم النّاس مُشاةً ، أما الرّكائب فقد كانت تحمل الجرحى والغنائم . ونظر النّبيّ العظيم إلى العائدين بعين الرّسول المبعوث للعالَمين ، فرأى فئةً يُنَغّص فرحتها بنصر الله أنها ستعود إلى يَثربَ صِفر اليدين ، لأن دورها في المعركة لم ييسّرْ لها غنيمةً أو أسيراً ، وكان لا بدَّ أن تسودَ العدالة . لقد اشترك الجميع في معركة الحقّ الظّافرة ، فتساوَوا في ثواب الله ، وبقي أن يتساوَوا في المكاسب المادّيّة .

وفي بُحيرة النّشوة التي تطوي الصّحارى إلى يَثربَ ، صاعدةً تلالاً ، هابطةً أوديةً ، مارّةً بقبائلَ أو مُنفردةً بين الصّحراء والسّماء ، نادى منادي رسول الله : توقّفُوا عند الكثيب ...

تجاوز العائدون مضيق الصّفراء ، وبدا لهم الكثيب بسَرحه المتَموّج مع

---

(١) السّعادة التي يبعثها الشعور برضا الله .

(٢) تَسعَد وتتمتع بنعيم الرّاحة .

النَّسيم فِردَوساً صغيراً ، راحوا يُمَنُّون الأنفس بنعيمه . ولم يكادوا يَحُطُّون الرِّحال حتّى جاءتهم دعوة النَّبيّ إلى الاجتماع ، كلٌّ بما حاز من مال ومتاع . وتحلَّق الجميع حول النَّبيّ بما يحملون ، وكانت المفاجأة : لِيُلْقِ كلٌّ منكم بما غَنِم ...

كانت الغنائم غالية جدّاً على أصحابها ، وكان التَّخلِّي عنها صعباً على النُّفوس ، لكنَّ اللهَ ورسولَه أحَبُّ إلى المؤمنين من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وتجارتهم وما كسبوا من مال ومتاع . لذلك لم يُقابَل أمر النَّبيّ بغير السَّمع والطّاعة . وتقاطر الرِّجال[1] مُسرِعين ، يُلقون في السّاحة بما في أيديهم ، وسُرعان ما تَعالى كَوْم من السُّيوف والرِّماح والثِّياب والأمتعة ، وامتلأ الكيس الّذي أمسك اثنان بِشِدقه المفغور[2] بقطع الذّهب والفضّة وأنواع الحُلِيّ ، وتزاحمت إبِل مَكّة وخيلها في مَربَط مجاور ، تنتظر أمر رسول الله فيها . وأحدق الرّجال بزينة قُريش وممتلكاتها الّتي أرادت أن تطفئَ بها نور الله ، فأتَمَّ الله بها نوره ، وجعلها في أيدي أنصار ذلك النّور .

فجأة صَفِرت أيدي الرِّجال مما كان فيها ، وحلَّت محلَّ الأحلام العريضة الّتي طال انتظارها تساؤلاتٌ وغُصَص ، وعاجلهم أمر النَّبيّ الرَّحيم : الغنائم للجميع ، حتى مَن خُلِّف في يَثربَ للقيام بعمل أو مُهِمّة ، تُقسَم بالتّساوي ، قِسمةَ عدلٍ ، ملأت الوجوه جميعها رضاً واطمئناناً . لقد فرح مَن كانت أيديهم خاوية بما آتاهم الله ، وفرح مَن قَلَّ ما بين أيديهم بالانصياع إلى الحقّ .

(١) توافدوا متلاحقين .

(٢) بفوهته الواسعة المفتوحة .

ثم وجّه النَّبيّ إلى الجميع أنبل كلمة في تاريخ الحروب عَبْرَ الزّمان ، وأوّل وصيّة إنسانيّة لمعاملة أسرى الحرب : « استوصوا بالأسرى خيراً » . وتلقّت القلوب المؤمنة تلك الوصيّة النّبيلة الرَّحيمة بشغَف ، فهي تمام الخير الّذي لا حياةَ إلاّ بتمامه .

اطمأنَّ النَّبيّ بذلك إلى إقرار الحقّ في صفوف جنده ، وتابع الرّكب السّعيد المسيرَ المبارَك إلى مدينة رسول الله . حيث تجمَّع النّاس بفرحتهم الّتي تضيق عنها الصّدور فتطلقها الحناجر زغاريدَ وأناشيدَ ، لقد كانوا يتلذَّذون بالانتظار الّذي لم يَقْوَ بعضهم على ارتشاف شُهْده طويلاً ، فَهَبَّ يقطع من جانبه شيئاً من الوقت والطَّريق ليقرِّبَ اللِّقاء الموعود .

ضحك الضُّحى لبِشر الوجوه ، وهبَّت نسائمه الخريفيّة الفاترة تُتحِف الأجساد بالمزيد من القوّة والنّشاط ، لِتَخِفّ إلى استقبال جند الله . وكان اللّقاء بين المنتظِرين المَشوقِين ، والحبيب العائد بنصر الله ونَعمائه . وكان بين المستقبلين ثلاثةُ فِتيان اعتَدنا أن نراهم معاً ، أمّا الأسمر الصّغير فهو ينعَم الآن بصحبة أبيه ، الّذي سبق آباءهم بالبشرى إلى يَثربَ . لكنّنا لن ننتظرَ طويلاً حتى نراه . فهو لا يُطيل المُكث بعيداً .

كانت الرَّوحاء أرضاً طيِّبة النَّسيم ، تنفتح عليها أودية عِدّة ، ويتناثر السَّرح الباسق في أحضان رمالها الصُّفر . وها هوذا اليوم يشهَد النّاسَ هنا ينتظرون العائدين من بَدر ، كما شهِدهم بالأمس القريب ينتظرون النَّبيّ في

حَرّة العُصبة[١] قادماً من مَكّة . لقد تَشَرذَموا[٢] جماعـاتٍ اتّخـذت ظلال السَّرْح منتَظَراً يحنو على الشّوق والحمد والخشوع .

يا لِشوق سعد الجارف لرؤية صناديـدِ قُريشٍ في الأصفـاد ! فقـد كان هـذا يعني له رؤية الباطِل منكسراً أمام سطوع الحقّ وظهوره ، ولعلـه أراد أن يرى شيبـــةَ في كلِّ أسير مطـــاطئ الرأس خَـــزْيـــانَ . وعبّ النّسيمَ الرَّخِيَّ العَطِر بشَغَف[٣] ، وقد أغمض عينيه على حلُم بهيج ، منحه أبياتاً راح يستعِـدُّ لإسماعها صديقيه المتحفِّزَين .

ظَـلَّ عبـد الله وابن عُمر صـامتَين مُطرقَين في تَشـوُّق ، يترقَّبـان انطـلاق شاعرهما بما ألهمه نصر بَدر ... وكان سعد في البداية مضطرباً ، حتى إنه شكّ في قـدرتـه على رفع صوتـه ، لكنّ التَّحفُّزَ الّـذي تنطِـق بـه مـلامح الصَّـديقَين ، وأنفاسَهما الحبيسة ، وفيضَ الأحـاسيس الّتي يَجيش[٤] بهـا صـدره ، فَجَّرت على شفتَيه الكلمات دون عناء ، وكأنَّ غيره من ينطِق بها :

اِهتِفُـــــوا : أللهُ أكبرْ ... هـــا هُــوَ الْحَــقُّ الْمُظَفَّرْ
قِلّــــةٌ في اللهِ تَـــــدحَرْ ... كُـــلَّ كَفّـــــارٍ تَجَبَّرْ
هـــا هُــوَ النَّصرُ الْمُـؤزَّرْ ... فـــاهْتِفُــوا : أللهُ أكبرْ

(١) مكان كان المسلمون يخرجون إليه لانتظار النّبيّ ، ﷺ .
(٢) تفرّقوا جماعات قليلة العدد .
(٣) استنشق بمتعة وتلذّذ النّسيم اللطيف الطيب الرائحة .
(٤) يضطرب ويتهيّج .

راح عبدا الله يكرّران : فاهتِفوا : الله أكبرْ ... فاهتِفوا : الله أكبرْ ..

وانضمّت إليهما أصوات أخرى ، حتى غدت كلمات سعد نشيداً هادراً ألهب الدّماء المتجوّلة في جسد الشّاعر الصّغير ، فراح يهتزّ نشوةً وانفعالاً .

١٢
لقاء الأحبّة

بدأ المجاهدون يتقاطرون رُوَيداً رُوَيداً ، فقد كان يُوقِرهم حَمل الغنائم وجرّ الأسرى المُصَفَّدِين ، وكان فيهم مَن يعاني جراحاً ، لكنّ الأفق الطَّلْق ، وشمس الضّحى الرَّحيمة ، ونسيم الخريف النّشِط ، وأغاريدَ الفرح بالنّصر ، حملَتِ الجميعَ على جناحَين يرقُصان فرحاً .

صاح سعد فجأةً ، وقد برزت جماعة من أقصى الوادي ، يتقدّمها فتًى يهرول ملوّحاً بكلتا يديه : أليس هذا أَنَساً ؟

تطاول ابن عُمر ، وقال بشيء من الامتعاض : أجل ... كم كنت أتمنّى أن أكونَ أنا ذلك الرّاكض المُلَوِّح ...

قال عبد الله مؤنّباً : لا تكُنْ حسوداً يابن عُمر ... أُسامة أحقّ منك بالخروج ، فهو في حَجر النّبيّ ، ومع ذلك لم يصحَبْه ...

صمت ابن عُمر وهو يتمتم : أُسامة صغير ... وأضاف بحسرة : لوأنّ أمّي قدّمتني إلى النّبيّ ، وقالت تلك العبارة الذّهبيّة[1] .

---

(١) إشارة إلى ماقامت به أم أنس بن مالِك ، عندما جاءت به إلى النّبي ﷺ ، وقالت : هذا أنس غلام يخدمك .

حَدَّجَه سعد[1] بنظرة مُعاتبة مُشفِقة ، وهو ينتزع نفسه مُهرولاً باتِّجاه أَنَس ... وفي اللَّحظة نفسها اندفع أُسامة من مكان مّا ، وهو يردِّد : أَنَس ... أَنَس ...

اعتنق الفِتيان بحرارة ... وكانت الأنفاس المتلاحقة تحِدُّ الأسئلة ، وإعياء أَنَس يقطِّع إجاباته العَجلى بلُهاث يضيق به ، فتطفح عيناه بالكثير الكثير من الحكايا ، وتُنهيان الحكاية بعد أن تبدأها شفتاه بثوانٍ قليلة ... واضطربت الأخبار واختلطت ، وكان سعد يستمع ويفهم أحياناً ، ويخيَّل إليه أحياناً أُخرى أنّه لا يفهم شيئاً ... معركة ليست كالمعارك ... نصر الله ... نصره وحده ... أكوام من الأسلاب[2] ... رَتَل[3] طويل من الأَسرى ... ألقيناهم في القَليب[4] ...

وكان أُسامة مُسمّراً في مواجهة أَنَس ، شاخصاً إلى الفتى المأخوذ تتحدَّث عيناه وشفتاه وذراعاه عن معركة سيُخلِّد التّاريخ ذكراها رمزاً لانتصار الحقّ على الباطل ، ونسي ابن عُمر تماماً أنه كان قبل دقائقَ مَغيظاً من أَنَس ، ويُخيَّل إليه أنّه يحسُده . أما عبد الله فكان كُتلة من الحماسة النّابعة من إيمان أصيل عميق .

شُغِل الفِتية عن انتظار آبائهم ، ولم ينتبهْ سعد إلاّ على راحة قويّة تستقِرّ على كَتِفه بدِفء ووِدّ ، فالتفت كَمَن أحسَّ بتلك الرُّوح المَشُوقة ، والتقت

(١) حدَّق إليه .

(٢) الأسلاب : جمع سَلَب . وهو ما يُنتزَع في المعركة من أموال وأمتعة العدو المهزوم .

(٣) الرّتل : الجماعة يتبع بعضها أثَر بعض .

(٤) البئر .

عيناه بعَينَي أبيه ، فاستدار مرتمياً في أحضانه ، وراحا يهتِفان معاً : سعد ... أبي ... أبي ... سعد ...

كان كلٌّ منهما يتحسَّس الآخر كأنّه غاب عنه دهراً : أنتم بخير ؟

ـ أنتم بخير ؟

ـ نحن بخير ...

ـ الحمد لله ... الحمد لله .

ـ أبي أنت جريح ؟؟..

قالها سعد ، وهو يَشخَص ببصره إلى عَضُد أبيه المربوطة .

ـ خَدْش صغير ...

ومدَّ ذراعه في الهواء يحرِّكها ليُطَمئِنَ ولدَه . ونظر سعد بإكبار إلى الرّباط غير المتقن : سيُشفى قريباً إن شاء الله . ودار بعينيه متباهياً ، متمنّياً أن تكونَ عيون الجميع على جرح أبيه المشرِّف .

كان كلٌّ مع والده : عبد الله ، وابن عُمر ، وسعد ، أما أَنَس فكان ينتحي جانباً ، وقد استند إلى جِذْع شجرة مواجهة ، وراح يُقلِّب بصره في الفضاء أمامه مُحرَجاً . ونظر سعد إليه ، ثم نظر إلى أبيه ، والتقت النَّظرات ، وتفاهمت ، فانحاز سعد إلى أَنَس ، وفي حَلْقه غُصّة كبيرة ، شكّكته في قدرته على الكلام .

رفع أَنَس إلى صديقه عينين حائرتين مرتبكتين دون أن تخبوَ فيهما الفرحة



ومدَّ ذراعه في الهواء يحرِّكها ليُطَمئِنَ ولدَه .

التي كانت تتراقص قبل قليل ، ثم بادره : عُدْ إلى أبيك ، سأسرع إلى النَّبيّ أراه ، ثم أذهب إلى أمّي ...

وركض يلتحق بركب صغير ، ممّن لم يجدوا أحداً بانتظارهم ، فتواصلت خطاهم إلى يَثربَ ، حيث لا بدّ أن أحداً ما سيكون بالانتظار .

اختلطت بسمة مطمئنّة بأثر ألم اعتَصر قلب سعد المرهَف : ها قد هُرِع الفتى اليتيم إلى المَلاذ الآمن الّذي يلتجئ إليه كلّ ولد ... لقد وجده في أعظم رجال الأرض ، وفي أُمّ ندَرت مَثيلاتها بين أُمّهات الدّنيا ... وشيَّعه بعينيه[1] البليلتين الشَّفّافتَين ، حتى اختلط بالجمع الصّغير ، الّذي يبتعد حثيثاً ، دون أن يسمحَ له بكلمة واحدة : رجل صغير ... ابن الثّانيةَ عشْرةَ هذا ، يجالس الرِّجال ، وتشترط أمّه موافقته لزواجها ، ويرافق النَّبيّ في غَزَواته ، إنه لا يستحِقُّ الرِّثاء بل الإكبار ... يالِلفتى النَّبيل ! لم يُرِدْ أن ينغِّصَ علينا فرحة لقائنا بآبائنا ... كان الوحيد من بيننا الّذي لا أبَ له ...

وكغمامة فِضِّيّة يتوامض في حافاتها ندًى دافئ ، يذكِّر بالنُّجوم البعيدة في ليلة صيف ، عبرت روحَه آيةٌ كان قد سمعها : ﴿ ألا إنَّ أولِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيهِم ، وَلا هُمْ يَحْزَنونَ ... ﴾ ، ولم يكنْ واثقاً بصحّة القراءة ... لكنّ المعنى شمَل جسدَه برعشة عميقة ، ونفخ فيها من الإيمان والثِّقة بالله ، فعاجلته دمعتان كبيرتان ، انحدرتا قبل أن يتمكَّنَ من ابتلاعهما .

عاد سعد إلى كَوكَبة[2] الرِّفاق وآبائِهم مُطرِقاً ، ورفع عينيه لتقعا مُباشَرةً

---

(١) تابعه بنظراته مودّعاً حتى غاب عن أنظاره .

(٢) الكوكبة : الجماعة من الناس .

في عَينَي ياسِر ... فجأةً نسي سعد كلَّ شيء ، وألفى نفسه وياسِراً كتلةً واحدة تتدحرج على الرّمل الدّافئ الوَثِير[1] ... كان سعد يضحك ، وبقايا الدُّموع عالقة في أهدابه ، أما ياسِر فراح يعتصِره ، حتى خُيِّل إليه أن نَفْسه ستَزهَق[2] ، وكان يردِّد عِبارة واحدة ، يكرِّرها آليّاً ... الحمد لله ... الحمد لله ...

سأل سعد وقد عادَ يغَصّ بدمع لم يعرِفْ سببه : هزَمتم قُريشاً !!!

ـ هزمنا الباطل ... لا سيادة اليومَ إلاّ للحقّ .

أُعجب سعد بعبارة ياسِر ، ونظر إليه مَليّاً ، ثم قال وهو يستعيد توازنه ، وينفض بقايا الرّمال عن ثوبه : ياسِر ... يجب أن تتزوَّجَ ... يجب أن تأتِيَ بياسِر صغير ...

وبعثت العِبارة المفاجِئة الضَّحِك في السّامعين ، وقال ياسِر بابتسامة متسائلة : ماالّذي خطر ببالك الآن ؟!!

ـ ... لا أدري ... أحسست أنه لو كان لك ولد مثلي لأسعدتْه تلك العِبارة ...

ـ أيّةُ عِبارة تلك الّتي تُريدني أن آتيَ بولد من أجلها ؟!

ـ لا سِيادةَ اليومَ إلاّ للحقّ .

ساد الصَّمت هُنَيهة ، ربّما لأن العِبارة كانت أروع ما يمكن أن يخطرَ للمرء

---

(١) الممهّد اللّيِّن .

(٢) ستخرج من جسده .

في هذا الظّرف . وقـال أبو السَّعـد ، وهو يرمُق ولـده بـاعتزاز : أجَلْ والله ... السِّيادة اليومَ للحقّ .

أما ياسِر ، فقد رمى ببصره إلى الأُفُق لحظـة خـاطفـة ، ثم أمسـك براحتـه كَتِف سعد ، وضغط عليها بِحُبٍّ كبير ... لم يكنْ واثقاً أنه سيُحِبّ والـداً لـه كما يُحِبُّ سعداً .

١٣

جَذَل [١]

أحسَّت هند برغبـة في ارتـداء ثوب جـديـد ، وتسريح شعرهـا ، وتخضيب كفَّيها بالحِنّاء[٢] ... بل أحسَّت أنها بحاجة إلى شيء من الطِّيب ، يزيد انتعـاش روحهـا ... عيـد حقيقيّ ... لكنّ النّشيج المُلتـاع المتسرِّب من الـدّار المجـاورة حَجَّم الفرحـة بين جـوانحها ، وخـاصّـة بعـد أن لفتت عمّتُهـا وبَرّةُ نظرهـا إلى ضرورة مراعاة شعور آل عَفراء ، الّذين فَقَدوا وَلَدين لهم في بَدر . هكذا قرَّرت الفِرار بفرحتهـا إلى أمّ أيّوبَ كما اعتـادت ، وكانت هـديّـةً من السّماء أن طلبت منهـا بَرّة ذلـك ، وهي خـارجـة لمشـاركـة آل عَفراءَ مَنـاحتهم[٣] ، لكنّ هنـداً أحسَّت أنّ عليهـا أوّلاً استطـلاعَ أخبـار العمّــة ، ولعلّهــا أرادت الحصـولَ على موافقتها .

راحت رُقَيَّة تستنجِد بكلّ مالديها من حَصافـة[٤] ، لتستطيعَ التّعبير بوَقـار عن الفرحةِ التي تُحِسّها ، وفيضِ الـدِّفء والاطمئنـان المتـدفِّقَين من هـذا النّصر العزيز ... ولم تنتبهْ إلى الابتسامة العريضة التي تملأ وجههـا ، وهي تصُبّ المـاء

(١) فرَح .

(٢) تلوين كفَّيها بالحنّاء . وهو نبات يعطي لوناً أحمر ، ويستعمل لتزيين الأيدي والأرجل .

(٣) المناحة : التَّجمُّع في مكان معيَّن للبكاء على الميّت .

(٤) الحصافة : سلامة العقل وجَودة الرّأي .

على الأُشنـان[1] المـذرور فـوق رأسَي عُتبـة ومُصعَب ، في الفِنـاء ، تحت أشِعّـة الشّمس ... كانت تُعِدُّهـا لمنـاسبـة عـزيـزة ، كما قـالت لهما ، وهي غـارقـة في أفكارها ، لاهية عن لَغَطِهما وصَرَخاتهما .

دفعت هنـد البـاب ، فَجَفَـل الصّبيّـان ، ثم انخرطـا في ضَحِكات طفـوليّـة مرحة ، وهما يتواريان خلف أمّهما ، وراحت رُقَيّة تشاركهما الضَّحِـك عَفْـوِيّـاً ، ثم أشارت إلى حُجرة عن اليمين ، قائلة لهند : ادخلي ، ادخلي ... انتهينا .

ـ لن أدخلَ ... سأوَلّيكم ظهري ... هيّا أنهُوا هذا الحمّام .

وتستدير على عَقِيبها ، وهي تُعابث الولدَين : هل أنظر ؟

فيجيبـان بفـزَعٍ مَرِح من بين سُتُر المـاء المنهمر على رأسَيهما : لا ... لا ... ليس بعدُ ... ليس بعدُ ...

فتعَقّب فوراً : سأنظر ... هل أنظر الآن ؟

ـ لا ... أمّي ... قولي لها ألاّ تفعلَ ...

قـالت العمّـة مستجيبـةً : هنـد دعيني أُزِلِ الأُشنـان عن رأسيهما ... ستتـأذّى أعينهما ...

ردّت هند بلهجة المعتذِر المسترضي : هيّا ... هيّا ... لن ألتفتَ ...

أخيراً ألبست العمّـة الصّغيرَين سَراويلَهما ، وتركتهما طليقَين ، تجفّف شمس الضُّحى السّاطعة جسديهما بحنان ، وسُمِح لهنـد أن تستـديرَ ، لتتلقّى الصّغيرَين بأحضانها ، وعاجلها مُصعَب : حسّان قال إن أباه سيعود اليوم .

(١) نبات يستعمل في التّنظيف رطباً ، أو يابساً مسحوقاً .

ـ أجل سيعود الجميع ... قولا : إن شاء الله ...

قالا معاً بجذَل وإيقاع : إن شاء الله .

سأل مُصعَب : سيُحضِر لي خالي سيفاً ؟

ـ لا أعرف ... لكنّه لو جلب واحداً فسيكون لسعد ، فهو الأكبر .

ـ وأنا ؟

تدخَّل عُتبة : نحن ما زلنا صغيرَين .

احتدَّ مُصعَب ، ورفع يده مُلَوِّحاً في وجه أخيه : أنت صغير ... أنا كبرت .

ورأت هند نُذُر عاصفة في الأفق : فأسرعت تقول : أبو العَبّاس سيجلب لك سيفاً .

لم تفلِحْ كلمات هند في إرضاء مُصعَب ، فاختلَس نظرة إلى أمّه ، وهي تجفِّف يديها بجانِبَي ثوبها ، ثم تلتقط جُوالِقَ[1] الأُشنان الصَّغيرَ ، والقَعب[2] الخشبيّ ، وتتَّجه إلى إحدى الغرف . وتساءل هامساً : هل يعود ؟!

أثار تساؤله دهشة هند ، وردّت : سيعود ...

ـ ألم يُستَشهَدْ ؟

ـ لا ... وانتبهت فَجأةً إلى تعبير غريب على ملامحه ، فأضافت : وماذا تريد أنت ؟

ـ ... لا شيء .

---

(١) كيس لوضع القمح وما يشبهه .

(٢) القعب : قدح ضخم غليظ .

انبرى عُتبة يضحك بِخُبْث ، وانحنى على أُذُن أخيه : هل أقول ؟

ـ بل اسكُتْ .

ـ إذاً قُلْ أنت .

قال مُصعَب متردِّداً : أريد أن نعودَ إليكم ..

قال عُتبة : وأنا كذلك .

ضحكت هند ، ورَبَّتت رأسَي الصَّغيرَين بكلتـا يـديهـا : سآخـذكما لتمكثـا معنا ، متى عاد أبو العَبّاس .

قال مُصعَب بامتِعاض[1] : وأُمّي ؟!

ـ وأمّك ...؟! دعها هنا ، ونحن هناك ... وزوراها متى شئتما ...

ولم يُعجبْ ذلـك مُصعَبـاً ، بـل حـوَّل عينيـه بغضب إلى الجـدار الفـاصـل بين الدّارَين : لونهدم هذا ...

عـادت هنـد تضحـك ، بينمـا كانت العمّـة تنضمّ إلى المجلس ، وعلى وجههـا ابتسامة رضا ، وسألت ، وهي تجلس متهالكةً : خرج سعد إلى الصَّفراء ؟

ردَّت هند بانشراح وحبور : منذ الشُّروق ...

تنهَّدت العمّة : يالِنَصر الله ! سيَبيت والدك اللّيلة معنا ، إن شاء الله .

وأحسَّت هنـد أنَّ عليهـا أن تجـامِـلَ عمّتهـا ، ولم تكُنْ تحسِن ذلــك ، كما تقـول أمّ أيّوبَ ، آه ... أُمّ أيّوبَ ! يجب أن تحتالَ لتسرعَ في الالتحاق بهـا ... فليس

(١) بغضب وألم .

ثمّة وقت حتى لاستجماع الشَّجاعـة أو مُراعـاة الصَّغيرين . وقـالت على عَجَل : كذلك أبو العَبّاس .

نظرت إليهـا العمّـة ، وهـزَّت رأسهـا بحركـة لم تفهَمْهـا هنـد ، ثم تشـاغلت بإزاحة شعر مُصعَب الغزير عن جبهته ، ولم تمهلْها هنـد ، فقـد شغلتهـا رغبتهـا بالانصراف سريعاً ، عن تفسير سلوك عمّتها ، فانبرت قـائلـة : حسنٌ ، سـأمضي الآن إلى أمّ أيّوبَ . قد تكون بحاجة إليّ ...

ـ من الأفضل أن تمكثي مع بَرّة ، سيصل أبوكِ بين ساعة وأخرى .

قالت بتصميم : لن يصِلوا قبل الظُّهر ، ثم إنّ بَرّة عند آل عَفراء .

ـ آه ذكّرتِني ، سأذهب أنا الأُخرى ...

ـ وأنا لن أتأخَّرَ ، سأكون في استقبال أبي .

لم تشعرِ العمّة بامتعاض ، عندما أخفقت في انتزاع مُصعَب وعُتبـة من بيت خالِها ، فقد كان ثمّـة مِهرَجـان حقيقيّ هنـاك ... الأب المغتبِـط بلقـاء أسرتـه بالنّصر والعطايا ، وسعد الّذي لم تكنِ الدّنيا بما فيها تعـدل فرحتـه بسيفـه ذي القبضـة الفِضِّـيّـة ، وبَرّة الّتي اقتسمت وهنـداً خـاتَمين ذهبيَّين ، وحُلّـةً[١] من القَطيفة[٢] الحمراء ، وياسِر الّذي وضع بين يَدَي هند ماغنِمه قائلاً : هاكِ هـذه الرَّيطة[٣] الحريرية ، وهذه القِلادةَ المطعَّمة[٤] بالذَّهب .

(١) الحلّة : ثوب أو عدة أثواب تلبَس معاً .
(٢) القطيفة : نسيج ذو وبر .
(٣) الريطة : ثوب ليّن ورقيق من قطعة واحدة أشبه بالملاءة .
(٤) القلادة المطعّمة بالذّهب : حلية توضع حول العنق ، رُكّبت فيها زخارف من الذّهب .

وقد ضحكت هند ، ثم قالت له محاوِلَةً تقمُّص شخصيّة الأخت النّاصحة : هذه الأشياء سأخبّئها عندي ، حتى إذا ماتزوَّجتَ كانت لزوجتك .

فابتسم بشيء من التّأمُّل : سيطول الأمَد دون ذلك ...

لكنّه على غير المُعتاد ، راح يُفكّر في الأمر على أنه ممكن ، بل ... قريب .

أما مُصعَب وعُتبة ، فلم يكُنْ بين الغنائم ما يَصلُح لهما ، لكنَّ أبا السَّعد أبى أن يكونا صِفر الأيدي ، فابتاع لكلٍّ منهما نعلَين جديدتَين .

وإلى جوار البيت رُبطت ناقة مُنيفة[1] ، غنِمها كلٌّ من أبي السَّعد وأبي العَبّاس مناصَفةً ، وعقد مُصعَب وعُتبة معها صداقة متينة ، منذ السّاعات الأولى .

---

(١) كبيرة عالية .

١٤

سَمَر وعِبَر

إنّها حقّاً لسعادة كبيرة أن يجتمعَ الشّمل من جديد ، في تلك العشيّة الدّافئة المؤنسة ، فهاهما الأُسرتان ملتئمتـان ، وهـا هي ذي أُمُّ أيّوبَ تـأتي بقرعهـا الحلو وعَبِيثتها[١] اللّذيذة ، وبَرّة ، الّتي اكتشفت أنّها حـامل ، ترفـد[٢] الفرح الكبير بفرحة إضـافيّـة ، فتفتح أبواب الأمـانيّ على مصـاريعهـا[٣] أمـام سعـد لينطلقَ مثرثِراً بِحُبور : أخيراً سيكون لي أخ ... سأُسمّيه حَمزة ...

ووافق أبو السّعد : حسنٌ ... عسى أن يكونَ فارساً كابن عبد المطَّلِب .

ـ سيكون يا أبي ...

ـ فقل : إن شاء الله !!

أومأ سعد برأسه مستدركاً : إن شاء الله ...

وأضاف : تعرف ؟... كنت أريد تسميته عبد الله ... لكنّني سأُسمّيـه حَمزة ... وإذا كانا اثنين فَحَمزة وعبد الله .

---

(١) العبيثة : لون من الطعام مكون من اللبن المتخثّر مع السّمن أو التّمر والقمح .

(٢) تقوّي وتدعم .

(٣) المصاريع : جمع مصراع . وهو أحد جزأي الباب .

ضحك الجميع ، وقالت هند شبه ذاهلة : لوأسميتموه مُصعَباً ... كم أتمنّى أن يكونَ لي أخ كابن عُمَير !

وقال أبو السَّعد : وهل هناك من هو كابن عُمَير !!!

وقال أكثر من صوت : ثم إنَّ لدينا مُصعَباً ...

حسم سعد الكلام على عَجل : لقد سَمَّيناه ... وانتهى الأمر .

ثم التفت إلى عمَّته : عمّة ... ماذا لوأطلقتِ أنت اسم عبد الله على وليدك ؟

قالت العمّة : أظنّنا سنسمّيه عَمْراً .

وتدخَّل مُصعَب بحزم مقلِّداً سعداً : بل عبد الله ... أمّي ... لقد سمَّيناه وانتهى الأمر .

ضحكت رُقَيّة : وماذا لو كانت بنتاً ؟

فعاجلتها هند : صَفِيّة ... لو كانت بنتاً فهي صَفِيّة ... وإذا أطلقتم عليها اسماً آخر فلن أنادِيَها إلاّ صَفِيّة .

وقاطعها سعد مُعابِثاً : لا نريد بناتٍ هنا ... تكفينا أنتِ ...

تدخَّل أبو السَّعد بحزم ، لقطع الطريق على جَدَل قد يطول بين ولدَيه : نريد ما يعطينا الله ، ونحمَده ...

واغتاظت هند ، وأصرَّت على مواصلة الحديث : أبي ألم يَنهَ النَّبيّ عن التَّفريق بين البنت والابن ؟

ـ بلَى ... سعد يُمازحك ...

تكلَّم الجميع إلاّ بَرّة ... كانت تُنصِت بتلذُّذ إلى ذلك الحديث الّذي انتظرته طويلاً ، متمنِّية أن يطولَ ويطولَ حتى لا ينتهيَ . أما أمّ أيّوبَ فقد راحت تتابع السَّمَر اللَّطيف ، وهي ترنو إلى صغيرتها الّتي تترعرع كنخلة فَتِيّة ، تَعبّ رحيق الحياة بشغَف ونشوة واندفاع ، وكانت تحتفظ في ذاكرتها بكلّ الأحاديث الّتي تجذِب اهتمام الصَّبِيّة ، وتُدخل الفرح إلى قلبها ، وتملأ جِرابها بكلّ المآكل اللَّذيذة الّتي تحبّها . وقد انتبهت هند إلى النَّظرة الحنون التي تفتقدها منذ زمن طويل ، فاقتربت من أمّ أيّوبَ ، والتصقت بها متودِّدة ، وهمست وهي تميل على أذنها : إلى مَن أَوكَلتم أمر أسيركم ؟

وفاجأ السّؤال المرأة الطَّيِّبة ، فقالت بدهشة وبساطة : أبو أيّوبَ هناك ...

ـ وأين ينام ؟

ـ في الأسفل .

ـ هل صحيح أنه مُوثَق(١) ؟

ـ طبعاً ...

ـ وأسير أبي الفَضْل ؟

ـ في حُجرة الجَدّ ـ رحِمَه الله ـ ويتناوب الشُّبّانُ البقاء في الدّار لحراسته ، وقد سمعت أنهم سيطلقون سَراحه دون فِداء لأنّه فقير .

كنت أتمنّى لو كان لهم أسير يفتديه ذووه ... فهم بحاجة إلى المال .

---

(١) مقيَّد .

تدخَّل أبو السَّعد : لقد غنمنا من بَدر ما أصلح أحوالنـا ، والحمـد لله ، ولقـد أمر النَّبيّ بإطلاق الفقراء الّـذين لا يملِكون فِـداء أنفسهم ، لأن بقـاءهم في أيـدي آسريهم عبء كبير ، فبعد أن قال لنا النَّبيّ : أكرِموا أسراكم . صار أحدنـا يَخُصُّ أسيره بطعامه و يبقى جائعاً .

قال ياسِر مُلتفتاً إلى أبي السَّعد : سمعت أنهم قد أطلَقوا رجلاً يدعى أبا عَزّة هـذا الصَّباح .

قال أبو السَّعد : أجل ، كنت حاضراً ... إنه فقير ذو بنات لا يملكْنَ ما يفتدِينَه به .

هتفت هند بنبرة المنتصر متوجِّهة إلى أخيها : أرأيتَ كم يُكرمنا رسول الله !

تابع أبو السّعد : أطلقه النَّبيّ مقابل تعهُّده بعدم الوقوف ثانيةً ضِدَّ المسلمين .

عـادت هنـد تسـأل أمّ أيّوبَ : ومـاذا يفعل الأسير سَحـابـةَ نهـاره[1] ، وهو مَرميّ في ناحية الحُجرة هكذا ؟

ـ لا شيء ... يقول الشِّعر ... ينـام ... يـأكل ... أو يتبـادل الحـديث مـع أبي أيّوبَ ، وهو طائر البصر دائماً بانتظار من يَقدُم من مَكّة لفدائه .

ـ كم طلبتم فداءً له ؟

ـ لا أدري ... ألف ، اثنان ، ثلاثة .

ـومَن سيأتي لفدائه ؟

(١) طيلة نهاره .

ـ آلَ مَخزومٍ كُثُرٌ ...

قال أبو السّعد : كان اسمه المُطّلِب ... أليس كذلك ؟

قالت أمّ أيّوبَ : المُطّلِب المخزوميّ .

ـ سيفتدونه ...

قالت هند ملتفتة إلى أمّ أيّوبَ : فاطلبوا الكثير . ألم يستحوِذوا على أموالنا كلِّها في مكّة !؟

ـ لقد حصر النّبيّ الفِداء بين ألف وأربعة آلاف .

ترجَّت هند : خالتي ... هل يَجوز أن أراه ؟ أن أُلقِيَ نظرةً عليه ؟

قالت أمّ أيّوبَ بشيء من التّردُّد : وما يمنع ؟!

تدخَّلت العمّة : وماذا تتوقَّعين أن تَرَي ؟

قال سعد : لا شيء ، تريد أن تقومَ بما لا يخطر ببال الآخرين ... كالعادة .

قالت أم أيّوبَ بتودّد وحبّ : دعها تفعل ما تريد ... هند ليست كالآخرين .

قال أبو السّعد بلهجة ليّنة معاتِبة : لقد كبِرت يا هند ، لا يليق أن تقفي كالأطفال ، تحملِقين إلى رجل غريب .

كانت هند تحبّ أحياناً أن يُقالَ لها : لقد كبِرتِ ، لكنّها لم تكُنْ تحبّ ذلك في مثل هذا الموقف ... وهكذا كان عليها أن تتجاهلَ ما تُحِسُّ به من

امتِعاض . فقالت برجـاء :لن أحملقَ يـاأبي ... سـأراه من حيث لا يراني[١] ... عندما كنت عند خالتي أمّ أَيّوبَ كنّا ننظر إلى النّبيّ والنّاس دون أن يَرونا ... وكنّا ننظر إلى مجلس ابن عُمَير كذلك دون أن يرانا أحد ...

قطع سعد حديث أخته كمن تذكَّر شيئاً مُهمّـاً لا يحتمل التّـأجيل : منـذ أن أُتِي بالأَسرى وأنا أتحيَّن الفرصة[٢] لرؤية أبي عَزيز ، وقد رأيته اليوم .

سألت هند : من هو أبو عَزيز ؟

قال سعد : أخو مُصعَب بن عُمَير ...

ـ وأين رأيتَه ؟

قال باستغراب : ألم تسمعي ما قلت !؟ بين الأَسرى .

شهقت هند : أخوه بين الأَسرى !!

ـ أجل .

وضربت بَرّة صدرها براحتها ، فالعلاقـات الأُسريـة ، والمواقف العـاطفيّـة وحدها تطلق لسانها من عِقاله[٣] : أخوه أسير ! ما أقسى ذلك على ابن عُمَير !!

ورفعَت هند صوتها : وماذا فعل مُصعَب ؟

قالت لها العمّة بهدوء : وماذا تتوقَّعين أن يفعلَ ؟... أخوه قادم لقتالنا .

---

(١) أراه من مكان لا يسمح له برؤيتي .

(٢) أنتظر حلولها .

(٣) تجعلها تتكلّم بطلاقة .

هتفت هند منفعلة : أوَلم يستحِي آسره من مُقرِئ المدينة[1] ، وهو يشُدّ وَثاق[2] أخيه !؟

استنكر سعد : يستحيِي !!

والتفت إلى أبيه بحركة تنِمُّ على الضّيق[3] : انظر كيف تستعمل الكلمات !؟

توجَّه الأب إلى هند : لا نقول « يستحيِي » هنا ، فأسر مُشرِك جاء إلينا يقاتلنا عمل يفخر المرء به ، ولا يصِحّ أن نقولَ : إنّ على فاعله أن يستحيِيَ ... ثم إن صِهْر النَّبيّ وابن عمّه بل عمَّه نفسَه في الأَسرى ...

قالت هند بصوت خافت آسف : لكنَّني أُشفِق على ابن عُمَير ... أَسرُ أخيه سيؤلمه ...

ابتسم أبو السَّعد ابتسامة خفيفة خُيِّل إلى هند أنها تحمل معاني كثيرة و ... مثيرة ، فلم تَزِدْ شيئاً على ما قالت ، لكنَّها بادلته نظرته بأُخرى . ولا شكّ في أنه قرأ ما وراءها ، وأدرك أنها تستزيده من الحديث ، وكان رجاءً عزيزاً على أبي السَّعد من صغيرته الّتي يحبّ ، فثبَّت عينيه في عينيها : استمعي إليّ يا هند ...

لم يكَدْ أبو السّعد يلقي بعبارته تلك حتى اتَّجهت إليه الأنظار ، وصمت

---

(١) لقب مصعب بن عمير .

(٢) الوَثاق : الحبل الذي يقيَّد به .

(٣) تكشف عن وجوده .

الجميع يستمعون . ففي جَعبة أبي السّعد[1] دائماً ما يُطرِف[2] ويعِظ ، وفي رواياته ما يجذب ويُمتِع .

قال أبو السّعد : ذهبتُ بسيفي - بعد بَدر - إلى خَبّابِ[3] بن الأَرَتّ لتقويمه وصقله[4] ، وبينما كنت عائداً وجدتُني على مقرُبة من بيت صاحب لي ، جمعتني به بعض جولات القتال في بَدر ، ويدعى أبا اليَسَر ، فقرَّرت زيارته ، وكنت أعرف أنّ أبا عَزيزِ بنَ عُمَيرٍ أخا مُصعَب أسير لديه ، وأنه كان شديد الحرج لذلك ، فهو يتجنَّب لقاء مُصعَب ويتهيَّبه ، لأنه شديد الحبّ والإجلال له .

تطاولتُ ببصري إلى بيت صاحبي فبَصُرت به على بُعد يلاعب ولداً له في الطَّريق ، وقد جلس أسيره مستنداً إلى الجدار يتناول شيئاً من صَحفة في يده ، فدنوت من أبي اليَسَر مسلِّماً ، فأقبل عليّ باشّاً . وفجأة تجاوزني بعينيه إلى ما ورائي ، وتجمَّدت ابتسامته ، وامتُقِع وجهه[5] ، فاستدرت مستطلعاً دهِشاً ، فإذا مُصعَبُ بنُ عُمَير مُقبل في رفقة يحثّون خطاهم .

ألقى الرِّجال التَّحيّة وسْط اضطراب أبي اليَسَر وارتباكه ، وأدركتُ حرَج الموقف حين راقبت النَّظراتِ التي تبادلها مُصعَب والأسير ، وتلك التي

(١) لديه .
(٢) يأتي بالطُّرَف .
(٣) رقيق مسلم تملكه امرأة مشركة ، ويعمل في صناعة السُّيوف وتقويمها وصقلها .
(٤) كانت المعارك تترك في السيوف التواءات ، وتثلّم حدودها ، فيعهدون بها إلى المقوّمين لإصلاحها .
(٥) تغيّر لونه من الحزن والألم .

تبادلناها فيما بيننا . لقد ظلَّ أبو عَزيز جالساً معتصِماً بكبريائه ، وهو ينأى بنظراته عن أخيه المنتصِب في مواجهة آسره ، يبتسم له بودّ ، مما زاد في ارتباك أبي اليسر وضاعف حرجه . ولما اتَّجه مُصعب بنظراته المشفِقة إلى أخيه الأسير تبلبل[1] أبو اليَسَر ، وقال متلعثِماً : يا مُصعَبَ الخير ...

فعاجله مُصعَب ملقياً بكفِّه على كتِفه : شُدَّ يديك به[2] . فإن أمّه ذات مال ... ولعلَّها تفتديه بالكثير .

وأخمدت عبارة مُصعَب حِدّة كبرياء أبي عَزيز ، فقال معاتباً : أهذه وَصاتك بي ياأخي ؟..

فقال مُصعَب وهو ينصرف ، ساحباً كفَّه عن كَتِف أبي اليَسَر المذهول : إنّه أخي دونَك .

وتبادلنا نظرة خرساء . أما مُصعَب فقد ابتعد ثابت الخطا ، ولم يلتفتْ حتى غيَّبه التواء الطّريق .

كانت هند تستمع إلى أبيها ، وقد حلَّقت في سماء بعيدة ، عالية ، نبيلة ، مضيئة ... حتى إنّها لم تسمعْ شيئاً من عبارات الإعجاب والمديح الّتي راح الجلوس يُغدِقونها على مُصعَب بن عُمَير[3] ... أمّا شاعرنا الصَّغير فقد تنبَّه في أعماقه ذلك السّحر العجيب ، الّذي يُترجم المعاني السّامية إلى كلمات جميلة ،

---

(١) اغتمَّ واضطرب .

(٢) تمسَّك به .

(٣) يطلقون عليه الثّناء بسخاء .

وأحسَّ أنه بحاجة إلى الاحتفاظ بحرارة تلك اللَّحظة ، وروعة ذلك المعنى ، فذهل عمّا حوله يستنطق قريحته[1] كلاماً يليق بهما :

أَخِي في اللهِ ، تَجمَعُنـا عَقِيـدَتُنـا ، وتَقْـوانـا
وأنتَ أَخِي ، بِـلا قُربَى فَحُبُّ الحَـقِّ قُرْبـانـا
ونَحنُ جُنُـودُ حِـزْبِ اللّـ ـهِ ، عَينُ اللهِ تَرْعـانـا

(١) القريحة : المقدرة على ابتداع الكلام وإبداء الرأي .

١٥

ماذا تفعل ؟

اعترضت هند الباب في وجه سعد ، وهو يُحكِم حِمالة السّيف[١] الثَّقيل الّذي جاءه من بَدر حول جسده ، وعقدت كفَّيها خلف ظهرها ، مستنِدة إلى عِضادة الباب ، وقالت بكسل : أنت ذاهب ؟ أجاب منهمكاً ، دون أن ينظرَ إليها : نعم .

ـ أشعر بالملل ...

ـ ابحثي عن شيء تفعلينه .

ـ ليست هذه المشكلة ، ستخترع بَرّة وعمّتي أعمالاً تحتاج إلى ثلاثة أيّام .

نظر إليها بلا مبالاة : ماذا تريدين إذاً ؟

ـ ليست لي رَغبة في شيء بعينه ... ولا أبحث عن عمل أقوم به ، فهناك أعمال كثيرة عليَّ القِيام بها .

ـ عمّاذا تبحثين إذاً ؟

ـ لا أدري ... رأسي فارغ .

ـ آه ... تبحثين عمّا يشغَل رأسك .

(١) يتقن وضعها .

ـ ربّما ...

ـ من الأفضل أن تعودي إلى النّوم ، فما زال الوقت مبَكّراً ...

ـ حاولتُ ذلك منذ صلاة الفجر ، ولم أُفلِحْ .

قال متهكّماً ، وما زال يعالِج الحِمالة بصبر يكاد ينفَد : فتعالَي معي ...

ضحكت بفُتورٍ ليتني أستطيع ... ألا يجب أن تتدرّبَ النّساء ...؟

ـ فعلاً ... الجهاد فرض على جميع المسلمين .

أخيراً استقرّت الحِمالة كما أراد ، فزَفَرَ بارتياح ، وقال ممازحاً : سنتدبّر سيفاً لكِ .

قالت ، وقد أحسّت بنفحة من النَّشاط ، فاستقامت بجسمها ، متخلّيةً عن العِضادة ، وحلّت عقدة كفّيها : أتسخر ؟! ألا ترى أن هذا ما يجب أن يحدثَ ؟

شدَّ قامته راضياً عن وضع السَّيف : ها قد وجدْتِ ما تفكّرين فيه .

ـ سعد ... أنت لم تعُدْ تهتمّ بي .

أحسَّ بشيء من أسًى وخجل ، وقال شِبه معتذر : أنا ! ليس الأمر كما تظنّين ، لكنّ أفكارك غريبة ، وأنا لم أعُدْ أملك الوقت الكافي للاستماع إليها ... تعرِفين أنّ عليّ إعداد نفسي للمشاركة في الجهاد .

ـ أنت في أحسن حالاتك ... على الأقلّ تخلّصتَ من حُيَيّ ونَخيله ... أمّا أنا ...

ـ فِعلاً ... الحمد لله ... علينا التَّفرُّغ للجهاد ...

قالت بِحِدّة ، وقد ساءها تجاهله إيّاها : وأنا ؟!

أجاب بِحَيرة : ... هند ، هذا يتطلَّب حديثاً طويلاً ، لا وقت لديّ الآن .

ـ سأفكِّر في الأمر ... وسأصل إلى شيء مّا ... لا أريد مساعدتكَ ...

ـ كم تثقين بقدرتك على التَّفكير !!

ـ ألم تمتدِحْ ذلك فيَّ !!

ـ أجل ... ولكن لا تكوني مغرورة .

ـ ليس غُروراً ... لا بدَّ أن هناك حلاًّ ، وعليَّ اكتشافه بنفسي ما دمتَ مشغولاً عن مساعدتي .

قال وهو ينظر إليها بإعجابٍ غلَبه : هند ... أنت فعلاً قويّة .

قالت وقد استعادت ابتسامتها ، متظاهرةً بالمبالغة في الزّهْو : أرأيت !!! أنا رُقَيّة الصّغيرة ...

ـ أتعرفين ؟... عبد الله يقول لي دائماً : أنا مُعجَب بعمّتك وأختك .

سألت مُعابِثةً : ابن عُمَر ؟

أجاب ممازِحاً ، مقلِّداً صوتها : ابن عُمَر ؟!!

ثم سألها في شِبه تأنيب : ابن عُمَر يعرفكِ ويعرِف عمّتك !!؟

قالت معترفة : عبد الله أيضاً نبيه .

ـ عبد الله ! لا أستطيع الحياة من دونه .

ـ لذلك نسيتَني ؟

قال ضاحكاً وهو ينطلق : أنّى لي ذلك ... أنتِ أحبّ النّاس إليّ .

شيَّعته بعينَيها الباسمتَين : وأنت كذلك ...

جلست هند إلى نفسها جِلسة حميمة . كما عوَّدتها وَحدتُها بعد انشغالِ سعد ، واختفاء صَفِيّةَ وحُبَيبةَ ، ونأيِ أمّ أيّوب ، وزواجِ عمّتها . أمّا بَرّة فهي تكاد تقصُر همّها على العناية بزوجها ، واستكمال الاستعدادات لاستقبال وليدها الثّمين .

وتحدَّثت إلى نفسها كما يلي : الآن يا هند ... عليك القيام بعمل مّا ، كلّهم يعملون إلاّكِ : والدك يجاهد بسيفه مع النَّبيّ ، أخوك ورفاقه يتدرَّبون على استعمال السِّلاح ، عمّتك ... أمّ أَيّوب ... بَرّة ... لكلّ منهنّ أُسرة تقوم على شؤونها . حتى هالةُ عملها في البيت لا يُقدَّر بثمن ، فهي تدير شؤون أسرتها بعد انشغال أمّها بوليدها الجديد ، ومرضها الطّويل ، وحُبيبة اللاّهية تتعلَّم الكتابة ، وتؤدّي أعمالاً كثيرة لا يؤدّيها إلاّ الذّكور ... ولم يبقَ إلاّ أنتِ ... ومُصعَب وعُتبة .

أحسَّت بغضب شديد عندما وصلت إلى هذه النّقطة ، وراحت تُهدّئ نفسها : يجب التَّفكير بهدوء ... بهدوء ... كيف ينبغي أن أتصرَّفَ ؟ ماذا أستطيع أن أفعلَ ؟ ينبغي ألاّ تهوّن من شأن نفسها ، فهي تحفظ من كتاب الله ما تحسدها عليه رفيقاتها ، وهي تتقن الكتابة ، وتشارك العمّة تعليمَ مُصعَب

وعُتبة ، لكنّها تعرف أن هذا لا يكلّفها من الجُهد كلّ ما تستطيع بذله . كلّهنّ يترقّبن تعاليم الدّين الجديد ، ويباشرن تطبيقَها ، والتّخلُّق[1] بها ، لكنّها تريد أن تفعلَ شيئاً إضافيّاً ... لوأنّ لها ذراعاً قويّة تحمل سيفاً تقاوم به الباطل والشّرّ ! لقد كانت من قبلُ تتمنّى أن تمتلكَ صوتاً مرتفعاً لتصرُخَ من أعلى السَّطح فتُسمِعَ يَثربَ كلَّها ، بل مَكّةَ والصّحارى الممتدّة دونها : لماذا ؟! لماذا لا تخضعون للحقّ أيّها الجَهَلة الجاهِليّون ؟! لماذا تُضطرّوننا إلى قتالكم ؟!

لكنّها الآن تدرك أن الكلام لم يعُدْ يُجدي ، وأنه لا بدّ من استعمال السّيف ... ولكن كيف تستعمله ؟ ألم يحدّثْهم أُسامة كيف أن أمّه ... آه ... أمّ أيمَن !! امرأة أُخرى قد تستطيع الاستفادة منها ... امرأة أُخرى تلتقي رغبتها برغباتها ... وها هوذا هدف محدّد يمكن النّجاح في السّعي إليه . حقّاً إنه ليس أساسيّاً ، ولكنْ لا بدّ من بلوغه للوصول إلى ما بعده .

هكذا عقدت هند مصالحة ومِزاجَها العَكِر هذا الصّباح . وهي الآن منهمكة في التّخطيط لِلخُطوة الأولى ، فكلّ عمل مهما كان بسيطاً يحتاج إلى تخطيط للنّجاح .

---

(١) جعلها خلُقاً يَلتَزم .

١٦

أحلام الفِتيان

على الرّغم من العالم الخاصّ ، الّذي كان يشُدّ سعداً دائماً بعيداً عن أختـه ، فهي مـا تزال تحتـلُّ المرتبـة الأولى في قلبـه ، ومـا زال غير قـادر على التّفريـط بصُحبتها ، واعتبارها أختاً عاديّـة ، كما يعتبر أترابُـه[١] أخَواتِهم ، حتى عبدُ الله حِبُّه وصديقه ، أخرج هالة من عالمه . لقد أدرك سعد ذلك عندما كان يبـاهي عبدَ الله وابنَ عُمر بسيفه ، وكان من جملة الأشياء المفرحـة الّتي يعنيهـا السّيف له أن هالة ستراه متقلّداً إيّـاه ، وكانت تُلِحُّ على مُخَيِّلتـه لوحـة تُرقِصـه نشوةً ، وتَشغَله ساعاتٍ طويلةً ، مع أنها لا تستغرق أكثر من لحظة صغيرة من الزّمان ، لو أُتِيح لها أن تكونَ واقعاً .

كان يحلمُ أن يكونَ الوقت أوائـل الضُّحى ، والنّسيم يهُبّ رَخِيّـاً ، وهـو يمرُّ بباب عبد الله ، لن يقرعَه ... يمرّ فقـط ، يسير جـادّاً ، وذوائبُ[٢] عصـابتـه[٣] الأُرجوانيّة تتراقص ، وتَخفِق على جانبَي رأسه ، فتلامس عنقه وخدَّيـه ، بينما يقبِض بيَـده على حِمالـة السّيف المصقول وهو يقـاطـع جسـده المشـدود مثلـه . صورة كان قد رآها من قبلُ ، عندمـا رأى حَمزة بن عبـد المُطَّلب عـائـداً من

---

(١) مماثلوه في السّنّ .

(٢) الذّوائب : الأطراف والنّهايات اللّيِّنة الخفّاقة .

(٣) العصابة : شكل من أشكال العمائم .

بَدر ... صورة لن ينساها أبداً ، وما زال يقَلّبها في ذهنه محاولاً صياغتها شِعراً ، سيفان متقاطعان بل متعانقان ... أجل متعانقان ، كلمة أفضل في الشِّعر . ولكن أين حُلُمه !! فليَعُدْ إليه ... إنه يحلُم أن يمرّ هكذا كَحَمزَةَ بباب هالةَ ، ويُفتَحَ الباب ، وتُطِلُّ هالة ، فينظرَ إليها نظرة خاطفة ، ثم يُكمِلَ طريقه ، لا يلتفت إلى الخلف ، فلا يجدُر به كرجل أن يفعَلَ . لكنّه يُحِسُّ بعينيها ترقُبانه ، حتى ينعطفَ عند نهاية الجدار متّجهاً إلى البيت .

كان على نحو مُبهَم[1] يُهِمّه أن تدركَ هالة أنه قد كبر ، وأنه ، وإن كان أقصر قامة من أخيها ، أصبحُ منه وجهاً[2] وأكثرُ وَضاءةً[3] . وأحسَّ برغبة كبيرة في وصول خبر سيفه إلى هالة ، ولذا اتَّبع خُطّة تقتضي الإسراف في شرح فضائل ذلك السَّيف ، وما ينوي فعله به . وذلك بأطرف الكلام ، مما يَلفِت انتباه رفاقه ، ويَعلَق بذواكرهم ، عسى أن ينقلَه عبد الله إلى أهله على مسمع من هالة ... لكن لا بدَّ من اتِّخاذ خُطوة أكثر إيجابيّةً ، وأشفى للغليل ، وها هوذا يهيّئ الأجواء لذلك بحديث وجّهه إلى ابن عُمر أوّلاً ، ثم إلى عبد الله : أتعرِفان !... أختي أكثر مني فرحاً بالسّيف ، وإعجاباً به ...

وأدرك من فَوره أن غايته من الحديث ما تزال بعيدة ، فأضاف على عَجَل : بنت وتُعجَب بسيف !!

---

(١) بشكل غامض يصعُب إدراكه .

(٢) أكثر إشراقاً وحُسناً .

(٣) الوضاءة : الحُسن والنّظافة .

وأضاف ثانية ، بشيء من الارتباك : أكاد أشكُّ في أنها تتمنّى أن تنالَ مثله ، بدلاً من الخاتَم الذَّهبيّ ، فهي لا تحفِل به .

عند هذا الحدّ أفلح سعد في اجتذاب اهتمام عبد الله ، الّذي قال برزانة : لا تهتمّ الفَتَيات عادةً بالسّيوف ...

ومع أنه بدا لسعد أن عبد الله قد قال شيئاً آخر غير ما كان يفكِّر فيه ، فقد علَّق على عبارته : لكنْ في هذه الأيّام الأمر يختلف ... ألا تهتمُّ أختك بسيفك ؟

ـ كرُبع اهتمامها بالثّوب المُعَصفَر[1] الّذي تَخيطه لها أمّي مِن رَيطة ابن خَلَف[2] .

قال سعد : لعل السَّبب أنك لا تحاورها ، ولا تتحدَّث إليها عمّا يدور بين النّاس .

ـ لا شيء يَخفَى ... والدي يتحدّث عن كلّ ذلك ... لكنَّ لهالة عالمها الخاصّ ، وأنا لا أشاركها اهتماماتها .

وسكت قليلاً ، ثم أضاف كمن يستدرك : نحن في البيت حِلفان : أنا وأبي وإبراهيم حِلف ، وأمّي وهالة وخالد الصّغير حِلف آخر ... و ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[3] .

---

(١) مصبوغ بنبات العُصفُر الذي يعطي النسيج لوناً أحمر .

(٢) أحد كُبراء قريش المقتولين في بدر .

(٣) جزء من آية كريمة .

وراح يضحك بمرح بدا لسعد غريباً ، وضحك ابن عُمر ، وقال مُشيراً إلى سعد : كان شاعرنا أحقُّ بهذه اللَّقْطة [1] .

لم يستطِعْ سعد أن يحدِّدَ موقفاً شعوريّاً من ذلك ، فهل يريد أن تكونَ هالة كأخته ؟ ربّما ... لكنّ المؤكّد أنه لم يشعُرْ بمقدار النّشوة الّتي سيطرت على عبد الله ، ولم يستطعْ لها تفسيراً ... أما عبد الله فهو يعرف تماماً سبب انشراحه ، إنه أخبار هند ، كائنة ما كانت . ولم تكنِ الأحداث المشتعلة المتلاحقة لِتعطي المرء فرصة كبيرة لأمثال تلك الأحاسيس والمواقف ، لكنّ القلوب الصّغيرة تُجيد دائماً العثور على أفراحها الخاصّة ، والاستمتاع بها مهما ضؤلت .

لقد راحت الأحداث تتوالى بفواصل لا تسمح بأكثر من التقاط الأنفاس . وقد كان يمكن أن تبدوَ مُرهِقةً مُمِضَّةً [2]، لولا انصهارُها في بُوتَقة [3] الإيمان ، الّذي يهزُّ الشّعور ، ويحرّك أفكار النّاس وخطاهم . حتى إن الحروب البغيضة أصبحت فرصة للقلوب المؤمنة تمتحن فيها صبرها ، وباباً مُفضِياً [4] إلى جنّات الله ، والخلود في سعادة أبديّة ، وغدت الشّهادة في سبيل الله الحقّ غايةَ المسلم . حتى إنه ليترقَّب ، بفارغ الصّبر ، اللّحظة الّتي يخطو فيها تلك الخُطوة الفاصلة بين واقعه ومُناه ، وهو يسعى إلى إقرار الحقّ والعدل في الأرض .

---

(١) بهذا الاستشهاد بالآية الكريمة .

(٢) مؤلمة .

(٣) البوتقة : الوعاء الذي يذاب فيه المعدن .

(٤) موصلاً .

١٧

صديقان جديدان

كانت عودة الرّجال من بَدر عيداً للجميع ، ومِهْرجان فرح وانطلاق لِمُصعَب وعُتبة ، فقد لها عنهما الكبار ، وغدا لديهما إذْن مفتوح[١] بالتّنقُّل بين بيتهما وبيت خالهما . وأكثر من ذلك ، فقد اكتشفا صديقَين جديدَين هذا الصّباح .

سبق عُتبة أخاه ، كالعادة ، في الاستيقاظ ، وبرز من الحُجرة متلفِّتاً ، في صحن الدّار الصّامت الخاوي ، ثم لم يلبثْ أن اقتعَدَ العَتَبة ساهِماً ، وأسند ظهره إلى عِضادة الباب ، وهو يعرُك عينيه ، في مُحاولة لإزالة آثار النّوم ... وفجأة تنبَّه إلى خُطًى لطيفة نشِطة تحاذي جدار الدّار ، تلاها قرع محترس على الباب ، فانتفض واقفاً ، ثم اتّجه إلى الباب كالبرق ، وقد أدرك أن القارع اللّطيف هو نفسه صاحب الخُطُوات اللّطيفة .

فتح عُتبة الباب بِجَهد ، وكانت مفاجأةً أن رأى نفسه أمام وجهَين صغيرَين ، يختلط في قَسَماتها الابتسام بالدّهشة ، كانا يُحيطان بامرأة ، لم تلبثْ أن خَطَت بثقة إلى الدّاخل ، فكادت تصطدم به ، وهو منشَغل عنها بالصَّغيرَين اللّذَين يبادلانه الاهتمام الصّامت . وتوسّطت المرأة الدّار ، وراحت

(١) سماح مطلق .

تنادي : عمّاه ... عمّاه ... وهي تُجرجِر خلفها البُنَيّة الصّغيرة المتشبّثة بطرف ثوبها ، بينما تلبَّث الفتى ، يبادل عُتبة نظراتٍ ضاحكة ، وقال بطلاقة مُحبَّبة : أنت ابنها ؟

أومأ عُتبة برأسه ، وقد أدرك أن الولد يعني أُمّه .

ـ أمُصعَب أنت أم عُقْبة ؟

ـ عُقْبة !

وابتسم : أنا عُتبة ... ومُصعَب هناك ، نائم .

وأشار بيده ، تطاول الفتى بعنقه ، دون أن يتحرّكَ من مكانه : متى يستيقظ ؟

ـ الآن ...

أجاب عُتبة ، وهو يندفع إلى الحُجرة في اللّحظة التي برز فيها أبو العَبّاس من حُجرته ، يتقدّم رُقَيّة .

واختلطت الأصوات ... لكنّ الأطفال كانت لهم على باب الحُجرة الأُخرى دنيا خاصّة ، شغلتهم عن متابعة ما يجري في باحة الدّار .

وقف الزّائر الصّغير بباب الحُجرة متردّداً ، بينما اندفع عُتبة يهُزّ أخاه ، وهو يصيح بانفِعال : مُصعَب ... مُصعَب ... استيقظ ... استيقظ ... انظر مَن هنا .

فتح مُصعَب عينَيه وهو يعتدل في فراشه ، ثم التفت إلى حيث أشار أخوه ،

فطالعه[1] الصَّبيّ الباسم بفضول لا يخلو من الارتباك . ونظر مُصعَب إلى أخيه متسائلاً ، فمطَّ عُتبة شفته ، ورفع كتفَيه ، علامة الجهل ، ثم وَكَز مُصعَباً [2] : قُمْ ...

سُرعان ما كانوا ثلاثةً متجاوِرين على عَتَبة الغرفة . أما الكبار فقد اختفَوا في حُجرة أبي العَبّاس ، بينما كان نصف وجه البُنَيّة الصّغيرة يُطِلُّ من باب الحُجرة بفضول واستحياء . وأراد عُتبة مناداتها ، لكنّ خجلها سرى إليه ، فهمس للصَّبِيَّين حتى لا يُسمِعَها : نادِياها .

ثم اتَّجه إلى أخيها بفضول : ما اسمها ؟

وضحك مُصعَب : نحن لم نعرفِ اسمه هو .

قال الصَّبيّ الباسم دائماً : عُمَر ... وهي عَفْراء .

ـ ولماذا أتيتم إلى هنا ؟

ـ هنا جَدّنا ...

قال عُتبة : لكنّ أمّكم قالت عَمّاه !...

ـ هو عمّ أمّي ووالد أبي .

قال عُتبة ، وهو يُديم النّظر إلى الصَّغيرة شِبه المتوارية : نادِها نلعَبْ .

نظر عُمر إلى أخته ، وقال محاوِلاً استرضاء الولدَين : تعالَي ...

---

(١) نظر إليه مستطلِعاً .

(٢) دفعه وضربه بخفّة .

رفعَتِ البنت حاجبَيها عابسةً ، فنهض نحوها ، وراح يجرّها من ذراعهـا ... ولم تتشبَّثْ كثيراً بموقفها ، بل استجابت له بحذَر ، ورافقته متردّدة .

تخلّى عُتبة للبُنيّة عن مكانه على العَتَبة ، وتربَّع على الأرض مواجهاً الثّلاثة ، بينما جلست هي بهدوء ملتصقة بأخيها . كانت لها عينان سوداوان غريبتان ، تبرُقان بشِدّة ، في قلب هالةٍ كثيفةٍ من الكُحل الأسود ، وفم مُدوّر صغير لا تفتحه أبداً ، وشعر فاحم كثيف مُلَولَب[1] ، تكاد ذوائبه الخَضِلة[2] تلامس كتفَيها ، وكانت ترتدي قميصاً أبيض فضفاضاً نظيفاً جداً مما يَلبَسه الصِّبيان .

اقترح مُصعَب : لِنلعبْ لُعبة بَدر . أنا حَمزة .

تعالت أصوات الولدَين باستنكار : حَمزة !

وعقَّب عُمر : تعرِف ما تختار !

أصر مُصعَب وهو يقف منتفخاً : أنا أسد الله .

ونزل ببصره إلى الفتَيَين : وأنتما ؟

بادر عُمر : أنا عَلِيّ بن أبي طالِب .

وقال عُتبة : وأنا صاحب اللِّواء[3] ، مُصعَب بن عُمَير .

ونهض يقتحم صفَّهم إلى قلب الحجرة : سآتي باللِّواء .

---

(١) ذو خصلات ملتوية كاللوالب .

(٢) أطراف خصلاته النّدية .

(٣) حامل العلَم ، وهي رتبة في الجيش .

وافق الصِّبيّانِ ، ولكن كانت هناك مشكلة ... فاللّعبة تحتاج إلى من يمثّل فُرسان قُرَيش . ونظر الثّلاثة معاً إلى البُنَيّة العابسة ، الّتي كانت ترقُبهم بفُضول ، دون أن تفطَنَ إلى ما ينتظرها .

وقال مُصعَب : هي أبو جَهل ...

قال عُمر مُتردّداً : أختي أبو جَهل ؟!

قال مُصعَب يسترضيه : إنه لَعِب ... هل أنا حقّاً حَمزة !! يجب أن يكونَ هناك من نقتله ، ثم نَجُرّه لنرميَه في القَليب . ومدَّ يده مبتسماً بإغراء وتشجيع يدعو عَفراء إلى النُّهوض .

تحوَّلت نظرة البنت العابسة إلى أُخرى متسائلة ، لكنَّ اتّفاق الصِّبية جعلها تستجيب لدعوتهم . ووقف الثّلاثة بانتظار مُصعَب ، الّذي اختفى في الحُجرة لإحضار سيفه وسيف أخيه . ولم يَصعُب تدبُّر سيفَين آخَرين لعُمَرَ وعَفراءَ ، من كَوم الأغصان الجافّة ، المُعَدّة للأثافِيّ[1] .

وضع عُمر أصغر السَّيفَين في كَفّ عَفراء ، وراح يجالدها بسيفه وهو يتقافز صائِحاً : افعلي مثلما أفعل ... هيّا ... اضرِبي سيفي ... اضربيه بسيفك هذا ، لا تَدَعيني أُصِبْك ...

لم تتخَلَّ البُنَيّة عن عُبوسِها وهي تستجيب ببطء لتعليمات أخيها ، وتحاول تقليده على استِحياء ، تحت نظَرات مُصعَب وعُتبة الجَذْلَى . وعندما انقَضَّ مُصعَب فَجأةً على الصَّغيرة ، أحسَّ عُتبة أن في الأمر ما يسوء ، فألقى نظرة

(١) أحجار ثلاثة يوقد بينها ، وتركز فوقها القدر للطّهو . والمفرد أُثفيّة .



وفي لحظة قصيرة ، كانت الصَّغيرة جامدة في مكانها ، وقد تدلَّت يدها بالسَّيف .

قلِقة على وجهها الّذي أخذ يتغيَّر مُنذِراً بعاصفة من البكاء . وفي لحظة قصيرة ، كانت الصَّغيرة جامدة في مكانها ، وقد تدلَّت يدها بالسَّيف ، ثم فَجأةً انخرطت في عَوِيل ثاقب ، كأنّما فَجَعَها[1] أحد بأعزّ ما تملك ...

انبعث الجميع من الحُجرة ، وهُرِعت الأمّ الزّائرة تختطِف ابنتها من بين الصّبية الّذين فاجأهم ما جرى ، فتوَقَّفوا عن اللّعب فاغِري الأفواه ، مُحملِقين إلى أبي جَهل المقهور ، وأدركت رُقَيّة ما جرى ، فنظرت إلى ولدَيها مُؤنِّبة : استضعفتموها لصِغَرها !؟ ليس هذا خُلُقَ المسلم ...

قال مُصعَب : إنه لَعِب ... وأشار برأسه إلى الصَّبِيَّين : لم يَرضيا القيام بدور أبي جَهل .

قالت رُقَيّة : فأين الوِسادة ؟!

تبادل مُصعَب وعُتبة النَّظرات ، وهتفا معاً : آه ... نسينا الوسادة !!

واستدارا يجُرّان الولد إلى حيث الوِسادةُ المُشركةُ ، المُعلَّقةُ دائماً في سقف الحُجرة ، والّتي تَتّخذ أسماءَ كُبَراء قُرَيش ، كلَّما عَنّ للصَّغيرَين القضاء على واحد منهم .

لكنّ تلك الوِسادة اختفت منذ ذلك اليوم ، ولم تهتدِ رُقَيّة إليها قطّ ... ولا يعرف أحد حتى السّاعة أنها مطروحة في البئر ، بعد أن أجهز عليها مُصعَب

(١) آلمها ألماً شديداً .

وعُتبة وعُمر ، وجرّوها في نهاية معركة بَدر ، ورمَوها في القَليب ، وهم يهتِفون : هل وجدتم ما وَعَدَكم رَبُّكم حقّاً ؟[1]

وأسفرت المعركة عن أُخُوّة حميمة بين المهاجِرينَ ، ممثَّلينَ بِمُصعَب وعُتبة ، والأنصارِ ممَثَّلينَ بعُمر وعَفراء ، بعد أن استرضاها مُصعَب وعُتبة ، بقِسط كبير من نصيبيهما في القرع المُحلّى ، الّذي حملته أمّ أيّوب أمسِ إلى الأُسرة احتفالاً بنصر بَدر .

(١) إشارة إلى قول النّبيّ - ﷺ - يخاطب قتلى قريش المطروحين في القليب : « هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً » ؟

١٨
منغِّصات

كانت هند شديدة الاحتفال بتحويل كلّ ما يقع تحت يدها من أقمشة ومُروط إلى ضِمادات ، وكان لها جُوالِق لطيف ، ذو سَير[١] قويّ يشُدّ فُوّهته ، لوضع الرّماد النَّقيّ جدّاً ، وقد عُرِفت بذلك بين المُقرَّبين من النّاس ، فكانوا يأتونها بما لديهم من فائض الأقمشة ، فتنظِّفها بعناية بالغة ، وتحتفظ بها . حتى إذا ما تجمَّعت لديها كمِّيّة كافية ذهبت بها إلى أمّ أيّوبَ ، وأمضتا معاً أوقاتاً ممتعة ، في تقطيعها ورَفْوِها ، لصنع ضمادات جديدة ، تُرزَم في مجموعات ، وتحفظ في مكان يقيها الغبار .

ومرَّت الأيّام بعد بَدر ، ولم تَحْظَ ضمادات هند برؤية النّور ، والحنُوّ على جُرح مجاهد ، باستثناء ذلك الجُرح اليتيم الّذي عاد به أبوها من بَدر . وقد ظلَّت حريصة على تضميده حتى بعد التِآمه ، ولم تقتنع بنزع الضِّمادة إلاّ عندما انطلق أبوها مع النَّبيّ ، بعد سبعة أيّام من بَدر ، لقتال بني سُلَيم . ويومذاك حشَت جِراب أبيها بعدد من الضِّمادات ، وكَمّيّة من الرّماد ، لكنّ القتال لم يتِمّ ، وعاد النَّبيّ بالرِّجال سالمين ، وعادت ضمادات هند كما أرسلتها .

بدا أصيل ذلك اليوم كئيباً ، وانتقلت عدوى الوجوم من أبي العَبّاس إلى

---

(١) السّير : قطعة من الجلد على شكل الحبل .

أبي السّعد ، وكانا كثيراً ما يترافقان إلى مسجد رسول الله لأداء صلاتي المغرب والعِشاء ... وفي تلك العشيّة أبطأ أبو السّعد قليلاً على صهره ، فوقف بالباب يستعجله رافعاً صوته بالنّداء .

وأجاب أبو السَّعد وهو يرفع كمّيه للوضوء مستعجلاً : ادخل قليلاً ياأبا العَبّاس ، لم أتوضّأْ بعدُ .

ولج أبو العَبّاس مطرِقاً ، وألقى التَّحيّة بصوت خافت .

- مالك ياأبا العَبّاس ؟!

- لا شيء ...

- لستَ على ما يرام !

- أجل والله ... يرهقني الحنين إلى البيت الحرام ... ها هي ذي حِجّة ثالثة لاأشهدُها .

هزَّ أبو السَّعد رأسه أسفاً وهو يجفّف وجهه : فما أقول أنا !!! كان البيتُ يُرى من سطح داري ... إنني أحِنُّ إليه وإلى بيتي وإلى شِعاب[1] مكّة ... يالِمَكّة !!! لقد شغلتنا الأحداث عن الحنين ...

- أجل والله ... إننا أمام مسؤوليّات جِسام ، ودائرة الأعداء تتّسِع كلّما أيَّد الله دينه بنصر جديد .

(١) الشّعاب : الطُرق بين الجبال . والمفرد شِعْب .

ـ كان متوقَّعاً أن يشغَب[1] هؤلاء السُّود[2] ، بعدما رأوا من إكرام الله وتأييده لنا ، والآن لا مناصَ[3] من ردّ حاسم .

ـ أجل ... لا بدَّ منه ... إذا نحن سكتنا عنهم فلن يتوقّفوا قبل القضاء على هذا الدِّين ، وهم يعملون بكلّ ما لديهم من الوسائل لتحقيق ذلك ...

ـ هذا ما يراه الجميع ... وابن الأشرَف لم يفعلْ ما فعل ، ولم يقُلْ ما قال ،[4] ويقول من تلقاء نفسه ... إنه لسانهم المعبِّر عن فكرهم .

ـ كان ينبغي إنزال العقاب به ، لوفعلنا يومَها لما استفحل أمره ... لكنَّه أنقذ نفسه بالهرب .

ـ لم يكُنْ هرَباً ، لقد ذهب إلى حلفاء قومِه يتشاورون ويتآمرون .

ـ لم يَعُدْ هذا خافياً ... بل لم يعودوا يهتّمون بإخفائه ...

ـ تبادُل المصالح ، تقاسُم العِداء ... العدوّ واحد ، شطره في الدّاخل بيننا ، وشطره الآخر هناك في مكّة .

ـ أمّا قريش فقد خضدت بدر شوكتها[5] .

---

(١) يثير الشرور والمشاكل والفتن .

(٢) كناية عن اليهود للبسهم السّواد .

(٣) لا مَفرّ .

(٤) إشارة إلى قوله بعد نصر بدر : « والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لَبطن الأرض خير من ظهرها » .

(٥) حطّمت كبرياءها .

ـ أجل ... فالجميع يردّدون قول حسّان بن ثابت [1] :

ولقــد رأيتُ ببَطنِ بَــدرٍ منهُمُ   قَتلَى تَسُحُّ لها العُيونُ وتَـدمَعُ[2]

ـ لا بدّ من ضرب يهودَ كذلك بمثل هذه اليد الحاسمة ، فهم يستحقّون ذلك ...

كان الحديث يصل هنداً وهي قابعة في حُجرتها ، تجترُّ كآبة تعاودها كلّ أصيل ، ولا تدَعُ للفرحة الخالصة سبيلاً إلى قلبها الصّغير ... لم تَعُدْ تخشى قُريشاً ... فهي بعيدة مهزومة ، لكنَّ تلك العناكِبَ السّودَ الّتي تعشّش فيما حولها لم تترُكْ للأمان في هذه المدينة مكاناً ...

وانكمشتْ واجمة ... ابنا أخطَبَ ، ابن الأشرَف ، ابن أبي الحُقَيق ، ومَن يدفع بالمنافقين ويشحذ مُداهم[3] ضِدّ الإسلام والمسلمين ... هناك الكثير ممّا لا تعرفه ، جعل كلَّ من حولها يشعر بعِداء يَهودَ وتآمرهم . ولا يزال حديث هالةَ عن قمح ذلك اليهوديّ يملأ نفسها كآبة لا حدودَ لها : « اتّفقنا أنا وعبد الله على ألاّ نذوقَ ذلك القمح ... لقد اضطُرَّ أبي إلى اقتراضه من صُورِيا بعد أن دَهَم المرض أمّي في إثْر ولادة خالد ، وكان لا بدَّ لها من أكْل ما يساعدها على إرضاعه ، لذلك قرَّرنا أنا وعبد الله التّخلّي عن نصيبَينا من القمح حتى لا نُرهِق أبانا باقتراض المزيد من ذلك المرابي » .

لم تكنْ هند يومذاك تدرك تماماً معنى ما قالته هالة . فوالدها أكثر يساراً ممّن تعرف من آباء أترابها ... لكنّها يومها قالت لهالة عاتبةً : لو جئتمونا ... فعندنا قمح كثير ...

---

(١) شاعر مسلم .

(٢) يشير إلى بكاء قريش قتلاها في بدر عجزاً وخِزياً .

(٣) جمع مُدْية . وهي السّكّين .

وأجابت هالة : تبعث إلينا عمّتك المرّة بعد المرّة بأصْوِعة منه ... لكنّنا كنّا يومذاك بحاجة إلى المزيد ... ولم يرضَ أبي ولا عبد الله أن نلجأ إليكم ... قالا : إن أباك لن يستعيدَ ما نقترض ، ولا يريدان الإثقال عليه ...

حتى بَرّةُ تبدو شديدة النُّفور من يهودَ ، وقد ردّدت أكثر من مرّة على مسامع الجميع حكاياتٍ عن جشَعهم وغدرهم ، ولا سيّما حكايةُ التّميميّ الطّيّب ، الّذي أودع لدى صَيرَفِيّ[1] من قُرَيظة[2] فِضّةً ، هي كلّ ما يملك ، فأنكرها عليه القُرَظِيّ ، فقتله ، وفرَّ إلى أهله . وتمثّلتها هند وهي تَروي على لسان القُرَظِيّ : ليس له عندي شيء ... وعلى لسان والدها : شعار يهودَ : أموال هؤلاء العرب الوثنيّين حقٌّ لنا ... ولا عهد لهم[3] ...

لم تستطِعْ هند تحديد ما تَحِسُّ به ... كان خوفاً واشمئزازاً وغَيظاً ... كان شعوراً غريباً بحاجة إلى التّفسير . وداهمها حنين إلى حَجر[4] أمّ أيّوبَ ... كانت هناك تجِد من يستمع إليها ، ويجيب عن أسئلتها في أيّ وقت تشاء ... أمّا هنا فلا أحد لديه الوقت لذلك ... سعد ... يالسعد وعالَمه الجديد !!! والعمّة !.. أجل ... ولِمَ لا ؟! بل الآن ، وحالاً ... إنّ العمّة وحدَها في الدّار ... والصِّبيَانِ تصلها أصواتها من الخارج ... فلْتُسرِعْ قبلَ أن يَحينَ موعد إدخالها إلى البيت ..

---

(١) الصَّيرفي : محترف الصِّرافة ، وهو من يبدّل نقداً بنقد .

(٢) قوم من يهود .

(٣) لسنا ملزمين بالوفاء بعهودنا لهم .

(٤) حضن .

١٩

العناكب تفترس الأحلام

كانت العمّة تتوضّأ عندما قرعت هند الباب ، فَهُرِعت تفتح ، وقد شمَّرت عن ساعدَيها ، وراحت قطَرات الماء تتوامَض على وجهها ، وتتَحدَّر من ذَقَنها . دخلت هند وهي تقول : ماذا تفعلين يا عمّتي ؟

ـ أتوضّأ ... ادخلي ...

وأغلقَت هند الباب ، وواصلت العمّة كلامها : أحسست بالرَّغبة في الوقوف بين يَدَيِ الله شكراً لما ييسّره لنا ...

ـ عمّتي ... أنا لا أكاد أفهم شيئاً مما يجري ...

ـ توضَّئي وتعالَي نُصَلِّ معاً ... وبعد ذلك نتكلَّم .

كلَّما صلَّت هند تتذكَّر إرشادات أمّ أيّوب ، ولا سيّما قولُها : إذا رفعتِ ذراعيك ، مع قولك « الله أكبر » ، فتخيَّلي أنك ترمِين بكلِّ شيء وراء ظهرك . لا تفكِّري إلاّ في الاتِّصال بالله ... وعندما سألتها هند : وكيف يكون الاتِّصال بالله ؟ قالت بإيمان عميق : إذا تذكَّرتِ في كلِّ لحظة أنّكِ في عالم كلُّه حقّ وعدل وخير وجمال وحنان وحبّ فأنتِ مع الله ... كلّ ذلك كانت تُحِسّ به هند ، تتذوّقه بلسانها كما كانت تتذوّق حَلوى أمّ أيّوب ، فإذا انتبهت إلى

نفسها وجدت أنها خفيفة ، تُحِسّ لُطف الهواء ، ونعومة ملمس يـديها ، ودِفْئـاً لذيذاً نظيفـاً يغمر جسـدهـا ، وسلامـاً واطمئنـانـاً مُرِيحَيْن يملأان روحهـا ... وتذكَّرت كيف دعَتِ اللهَ يوماً بقولها : « ياخير يـاعـدل يـاحقّ ... يـا ... » فابتسمت أمّ أيّوب ، ولمـا سـألتهـا هنـد : هل أخطـأت ؟! قـالت المرأة : وهي تمسح شعرهـا بلطف : لا يـاابنتي ... لكنَّ كلمـة « الله » تعني كلّ هـذا ، وكلّ ما يخطر ببالك من مَعانٍ سامية .

لم تستطِعْ هند أن تطلبَ شيئاً من الله في صَلاتها تلك ... فهي لا تفهم تماماً ماالّذي يجري حولها ، ولذلك اقتصرت على ترديد عبارات الحمد والشُّكر لله .

أدركت العمّة أنها مُقبِلة على حديث طويل مع ابنـة أخيهـا ... حـديث لم يَدُرْ بينهما مثلُه منذ زمن طويل . فنهضت من مُصَلاّها[1] مسرعـة ، والتقطت طبق قَشّ من زاوية الحُجرة ، ثم قالت : تعالَي ولْنَجلِسْ في الفِناء[2] .

تبعتها هند صامتة ، بينما غابت العمّة بطبقها في حُجرة أُخرى ، وعادت به تحمله بين ذراعَيها ، وأمام الصَّبِيّة المتطلِّعة المنتظرة وضعت العمّـة الطبق الملآن قمحاً ، ثم جلست في مواجهتها ، وانحنت على القمح تُقلِّبـه بكَفِّهـا ، وهي تقول بوِدّ : لننظِّفْ هذه الحبوب ونحن نتكلَّم ...

لقـد كان للعمّـة شِعـار يعرفـه الجميـع : « إذا استطعتَ أن تـؤدِّيَ عملَين في وقت واحد ، فلا تقتصِرْ على أحدهما » . لذلك أقبلت هند على العمل مُمتثِلةً ، بل لقـد سرَّهـا أن العمّـة قـد استعـدَّت لحـديث طويـل ، لا تشعر أنـه مَضيَعـة

(١) مكان صلاتها .

(٢) ساحة الدّار .

للوقت ، ورأت أن تبدأ من النّقطة الأكثر أهميّةً بالنِّسبة إليها : عمّة ... هل ترين أننا سنقاتل يهودَ ؟

فوجئت العمّة ، لكنّها قالت بثقة : قد لا نفعل ... لكن مِنَ المؤكَّد اليومَ أنهم أعداء لا يُؤمَن جانبهم ، ولا بدَّ من وضع حدّ لأذاهم .

قالت هند بشيء من الحرَج : عمّة ... أريد جواباً مُحدَّداً ... نعم أو لا .

نظرت العمّة بعتاب : ليس هكذا يا هند ... ما كلّ سؤال يمكن الإجابة عنه بنعم أو لا ؟!

رسمت هند بسَبّابتها دائرة على سطح القمح المحدَّب الأسمر ، وقالت متأنّية : حسنٌ ... هل هناك أمل في أن يَحُلَّ الوئام بيننا وبين يهودَ ؟

أجابت العمّة : هكذا أستطيع الإجابة ... لا أملَ بذلك .

وَجَمت هند لحظة ، بينما تابعت العمّة باهتمام : إنهم دائبون على تصعيد عِدائهم لنا[1] ، ولا بدَّ في نهاية المَطاف من إيقافهم عند حدِّهم .

ـ فَمَن العدوّ ... قُريش أم يهُود ؟

ـ الباطل بكلّ صوره وأشكاله .

ـ والمنافقون ؟

ـ وهؤلاء أيضاً ... أليسوا على باطل ؟!

---

(١) جادّون في زيادة الاعتداء علينا .



رسمت هند بسبّابتها دائرة على سطح القمح المحدَّب الأسمر ، وقالت متأنّية :

ـ حسنٌ ... هل هناك أمل في أن يَحُلَّ الوئام بيننا وبين يهودَ ؟

قالت هند بضيق : الجميع إذاً أعداء !!! ألسنا على حقّ ! لماذا لا يخضعون للحقّ ؟! ألا يعرفونه ؟!

توقّفت العمّة عن تقليب القمح ، ورفعت عينيها إلى هند ... يالِلصّغيرة !!! وأجابت بثبات : ليست المشكلة أنهم يعرِفون أو لا يعرِفون ... فأنتِ ، مثلاً ، تعرفين أن المساهَمة في أعمال البيت واجب ، وأن من الحقّ والعدل القيامُ بها ، ولكنّك لا تؤدّينها إلاّ مُكرَهةً ، لأنك تُؤْثِرين الرّاحة ، وترغبين في اللّهو أكثر من رغبتك في اتّباع الحقّ ...

يجب أن تعلمي ـ يا هند ـ أن معرفة الحقّ وحدها لا تكفي لاتّباعه . فكلّ النّاس أعطاهم الله القدرة على معرفته ، لكنّ عليهم مغالبة أهوائهم ، والاستعداد للتّضحية بشيء من مصالحهم الخاصّة ، لإقامة العدل والحقّ .

ـ وهل يجب أن نحاربَهم ، إن لم يفعلوا ؟

ـ بل إن اعتدَوا علينا ، فنحن لا نبدأ أحداً بحرب ... ألم تلاحظي ذلك ؟

شردت هند قليلاً : حقّاً !!! نحن لم نُؤذِ قُرَيشاً ... هم آذَونا وأخرجونا من بلدنا ... كذلك يهود ... ماذا فعلنا لهم ؟!... إنهم هم من يستغِلُّ ويتآمر ويتحرَّش ... والمنافقون ... أعرِفُ ... شرحت لي أمّ أيّوب ذلك ... إن مصالحهم مع يهُودَ ، ولذلك حالفوهم ضدّنا ...

اطمأنّت العمّة إلى أنها لن تجِدَ صعوبة في خوض الحديث مع هند ، كما كانت تجِد من قبلُ ... وسرّها أن سيول الأسئلة المتلاحقة لم تَعُدْ عبئاً عليها . بل إن هنداً الآن تتكفّل إجابة معظمِها بنفسها ... وأضافت : مع ذلك فإنّ علينا أن

نعرِفَ أعداءنـا ، ونعرفَ كيف يتـآمرون علينـا ... إن يَهُودَ هم الآن من يتولّى كِبْر العداوة[1] والمؤامرات ...

ـ ولكن ألا تَرَين أنّ المنافقين أشدّ منهم خطراً ، وأنهم يكشِفون أسرارَنا لهم ؟

ـ اسمعي يـا هنـد ... المنـافقون قلّـة ينبـذهم المجتمـع ، ولا يجرؤون على التّحرُّك ضدّنـا دون دعم يهودَ ، فهم يحرّكونهم لإثـارة الشُّكوك والشّغب في الـدّاخل ، كما يحرّضون قُرَيشـاً ومن يستطيعـون شراءه من الأعراب والبـدو من حـولنـا . إنّ هدفهم محاصرة هذا الدّين والقضاء عليه .

ـ ولِمَ يطاوِعهم هؤلاء ؟! أيخشَونهم ؟.. هل هم بهذه القوّة ؟!!

ـ أبـداً ... إنهم مثـال الجُبن ، والجميع يعرف ذلـك ... كلّ مـا يفعلونـه الاختلاء بأنفسهم في أوكارهم المظلمة ، وتدبير المكايد والمؤامرات ، واستغلال الأوضـاع .. وهم يستخدِمون أموالهم في تنفيذ مُخطّطاتهم دائماً .

ـ وهل فعلوا الشّيء نفسَه مع قُريش ؟

ـ طبعاً ... ولقد وعدوهم بالمساعدة ... لكنّهم لن يساعدوهم بسيوفهم أبداً ...

ـ هل أنتِ وحدكِ من يعرف هذا ؟

ـ كيف تقولين ذلك ؟! قلت لك هـذا معروف عنهم . انظري إلى مـا فعلـه ابن الأشرَف ، بل إلى موقف يهودَ بعد بَدر من الإسلام والمسلمين والنّبيّ ...

ـ ولكن ألم تكُنْ بيننا وبينهم مُعاهَدة !!

---

(١) من يقع عليه إثمها .

ـ آه ... المعاهدة !!! هل تعرفين ماذا تعني المُعاهَدة ؟

ـ لا أعرف تماماً ، لكن قِيل لي إن المُعاهَدة قَلَّمت أظفار يَهُودَ .

ـ المُعـاهَـدة تعني اتِّفـاقـاً مكتـوبـاً بين طرفَين ، يلتزم كلّ منهما تنفيـذه . أمّـا المُعاهَدة الّتي تعنين فقد كانت بين النَّبيّ ويَهُودَ عنـدمـا قـدِمَ من مَكّـة ، وتنصُّ على مشاركة يَهُودَ في الـدِّفـاع عن يَثربَ إذا تعرَّضت لاعتـداء ، وعـدم التَّعـاون وأعداءَ المسلمين ... وقد وقَّعوها خِداعاً ، ولم يلتزموها إلاّ ظاهريّاً .

ـ فلماذا وقَّعوها إذاً ؟

ـ لقد اختار النَّبيّ ذلك بالتَّشـاور والمسلمين ، فـاستجـاب يهود يَثربَ ، على أمل أن يغيِّروا الأوضاع لصالحهم شيئاً فشيئـاً . وذلـك بـالتّـآمر والـدَّسّ والخـديعـة كعـادتهم . ولكنّ مـا حـدث في بَـدر جعلهم يـدركون أنَّ السِّيـادة ستكون لهـذا الدِّين وأهله ، وأنـه الحقّ الّـذي سيكشِف بـاطلهم ، فراحوا يَحيكون المؤامرات ضِدَّنا ، متنكِّرين للمعاهدة ، وقد نجحوا في ذلك ...

ـ وساعدهم ابن سَلُولَ وأشياعه(١) .

ـ ألم أقلْ لكِ ذلك ؟ لقد جمعتهم المصلحة ، فهم دائماً يبحثون عن أعدائنا ليتَّفِقوا وإيّاهم : أوّلاً منافِقو يَثربَ ، ثانياً قُريش ، ثـالثـاً بعض القبـائل في الجوار ، ثم لا ندري مَن ... ماذا يعني ذلك ...؟

قالت هند شاردةً : ماذا يعني ؟... يعني أنّهم رأس الفِتنة ...

---

(١) أمثاله ومشابهوه .

ـ يعني أنّهم نقَضوا المُعاهَدة ، وهذا يمنحنا الحقّ في عِقابهم ، بالطَّريقة التي نراها مناسبة .

ـ أي لا بدّ من قتالهم !!

ـ في أوّل الأمر كان النَّبيّ يرى تأديبَهم فقط ، عسى أن يرتدعوا فلا يقع قتال ، أما الآن فاحتمال مقاتلتهم هو الأرجح .

ـ ليت التّأديب نفع ...

ـ ليته كان فعل ... لا أحدَ يريد العُنف والقتال يا بنتي .

هكذا لم تَعُدْ هند تفكِّر في الأمر من خلال أحلامها الحلوة ، ورَنَت بأسًى إلى صُوَر جميلة ، تبتعد وتبتعد حتى تضيعَ معالمها : حائطُ النَّخيل الوارِفِ الظِّلال ، الممتدُّ ملعباً ومُستراحاً[1] ، تلهو في جنَباته مع حُبَيبة ، وتجتمع في بعض أجَماته بصَفيّة الجميلة ، أو تستمع إلى أخبارها المثيرة ... وهكذا أيقنت أن الوقت قد تأخَّر كثيراً عن عودة ما كان ... وأنه لا أملَ بعدَ اليوم في استعادة أسعدِ الأوقات ، في ذلك الفِردَوس الّذي يتلاشى في أُفُق الذّاكرة البعيد .

---

(١) مكاناً للرّاحة .

٢٠

حَدَثَ في السّوق

كان عبد الله مُغتبِطاً ، وهو يستحِثُّ الحمار الأَملَح[١] البليـد ، الّـذي اكتراه أبـوه بـالأمس ، بعصـاه الصَّغيرة . أمّـا أبـوه فكان يمشي وراءه شـارداً ، لا يكاد يُبادله الحديث إلاّ إجاباتٍ مُقتضَبـةً عن سؤال أو استفسـار . كانـا يتَّجِهـان إلى سوق بني قَيْنُقاع ، لإعادة القمح الّذي اقترضه الأب من تاجر يَهُوديّ ...

لم يَخْفَ على عبـد الله سببُ وُجـوم أبيـه ، فهـو يُسرع بـالقمـح إلى ذلـك اليهوديّ ، نافِضاً البيتَ[٢] من آخر حبّة ، إضافة إلى صـاع[٣] من أبي العَبّـاس ، لئلاّ يَفُوتَ موعد السَّداد ، فتتضاعف الفائـدة ، وخـاطب عبـد الله نفسَـه : ألم يكنْ من الممكن ألاّ نقترِضَ من ذلك المُرابي[٤] ؟ وتذكَّر أنه لم يكنْ مِن ذلـك بُدّ ... لوأنّ ذلك اليهُوديّ يقبل استعادة قمحـه دون زِيـادة ، إذاً لَحَوّلنـا تلـك الزِّيادة إلى أمّي ... ولم يستطعْ إساغة[٥] مـا قـالـه أبوه أمسِ : يقبل قمحـه دون زِيادة !! إنّه اتّفاق ، والزِّيادة من حَقّه .

---

(١) الذي يخالط بياض شعره سواد .

(٢) غير تارك فيه شيئاً .

(٣) الصّاع : مكيال للحبوب .

(٤) المرابي : الذي يَدين المال على أن يسترجعه بعد زمن معيَّن مع زيادة متَّفَق عليها .

(٥) تقبُّل .

من بعيـد بـدأت السّـوق تلُـوح لعينَي عبـد الله ... النّـاس المتجمّعـون ، الحوانيت المتنـاثرة والمتقـاربـة ، الفُسحـة التي تَغصّ بـالنّـاس ، من أهـل يَثربَ والقبائل المجاورة ، والبَدْوُ القـادمون بحيوانـاتِهم المحمَّلـة ... كان عبـد الله يمقُت الغُبار الّذي يسربِل المَشهد من بعيد ، فهو يَحُول بينه وبين اكتشاف الـدّقـائق المثيرة[1] ، للباعة والمشترين ، والسّماسِرة والمُساومِين ، والسِّلَع المفروشة أرضـاً ، أو المُتَربِّعة على الـدّكاك[2] ، أو المُنَضَّـدة في الحَوانِيت ... وراح اللَّغَـط يصِل إلى أُذُنَيه ، ويتكَشَّف شيئاً فشيئاً عن أيمان وتأكيـدات ومُشـاجرات وصَيحـات وتهديدات ... عالم آخر شديد الاختلاف عن يَثربَ ومَكّة ...

أخيراً توقَّفَتِ الخُطا أمام دُكّان صُورِيا اليهُوديّ ، ولم يكنْ عبد الله قد رآه من قبلُ ، ومع ذلك فقـد أحسَّ أنـه أمـام خَصْم ... أمـام عينَين لا تُحِبّـانـه ... وكان صُوريـا يجـادل يَثرَبيّـاً في كيلَين من شَعير يقترضها ، بينما راحت ترتفع من الجوار أصوات فِتية يتمازحون لاهِين ، وقد رفع أحدهم صوته بـالغِنـاء ، حتى إنَّ عبد الله شُغِل بغنائه ، فلم ينتبهْ إلى والده ، وقـد راح يُنزِل كيس القمح عن ظهر الحمار ، ويُلقي به أمام اليهُودِيّ . ولكنّ ارتطـام الكيس بـالأرض لَفَتَـه ، فوقع بصره على اليهُودِيّ الّـذي بـدا لـه وكأنّـه قـد مُنِيَ بِخَيبـة ، وراح يغـالِب شعوراً بالامتعاض طفا على صفحة وجهه .

شرع التّاجر يَكِيل القمح بِعنايـة وحرص ، بينما اشتـدَّت حِـدّة اللَّغَـط في الجِوار ، وتصـاعـدت فَجـأةً ، مترافقـةً بـاضطراب وصُراخ ، وانطلقت من هنـا وهناك عِبارات : قُتِل ... لقد قتلناه ...

(١) يمنعه من رؤية ما يثير اهتمامه بوضوح .

(٢) جمع دكّة : وهي مسطبة مرتفعة مستطيلة من حجر أو رمل مرصوص أو خشب .

وتراكض النّاس ، بينما راح التّاجر ، الحريص على دِقّة الكَيل ، يواصل عمله بارتباك ، وهو يرتجف مَغيظاً فَزِعاً . وراح عبد الله ووالده يساعدانه على الفَراغ من الكَيل بسرعة ، ثم انطلقا إلى أقصى السّوق مع المنطلِقين ، وكأنّما كانت الأمور تزداد تأزُّماً . ولم يكنْ بوُسع عبد الله وأبيه الاقتراب أكثر ، فقد تزاحم النّاس ، وعلا الصُّراخ والتَّشاتُم ، وسرى الخبر من أقصى الجمع إلى أقصاه : قَتل أحدهم فتًى يهُودِيّاً تحرَّش بامرأته ... فتكاثر عليه بنو قَينُقاع وقتلوه ، واشتبكَ اليهُود والمسلمون ... كلّ ينتصر لقتيله ...

راح الغَيظ يغتلي في جوانج عبد الله ، وهو يُسايِر أباه ، بعد تَقَضّي ما جرى ، وأقسم فيما بينه وبين نفسه : لوأني أحمل سيفي لَهَوَيتُ به على ذلك اليهُودِيّ النَّتِن ... وراح والده يتحدَّث مُوارِياً غَيظَه وسَخَطَه وراء سِتار من التَّعَقُّل والهُدوء : صاحبنا هو من بَدأ بالقتل يابُنَيّ ... لا تنسَ أن بيننا مُعاهَدة .

استشاط عبد الله غَضَباً[1] : مُعاهَدة !! أبي ... أيّةُ مُعاهَدة تلك ، وهم يتآمرون وكلّ خَصم لنا ، ولا يتورَّعون عن التَّحالُف مع أيٍّ كان للنَّيل منّا !... إنهم يتظاهرون بالمَسْكَنة ، وهم يمارِسون الأذى ، ويُشعِلون الفِتَن ، وكلّما رأوا غِرّة[2] منّا أبرزوا أنيابهم ومَخالبهم .

فجأة قطع عاصفةَ عبدِ الله تلك صوتٌ هاتفٌ من الخلف : ياأبا عبد الله ...

---

(١) التهب غضباً .

(٢) غفلة .

كان الصّائح ياسِراً ، وكأنما وجد عبد الله في الشّابّ الأسمر المُهَروِل نحوه ضالّتـه المنشودة[1] ، فاستدار إليه ، وركض مُتلهّفاً : أكنتَ في السّوق ؟

وردَّ ياسِر : أرأيتَ يا عبد الله !!

هزَّ عبد الله رأسه آسِفاً : أرأيت !!

ـ أكاد أنفجر غيظاً ... لم يعودوا يكتُمون حِقدَهم ... يالِنذالتهم !!!

ـ وأبي يقول : المُعاهَدة ... وصاحبنا هو الّذي بدأ ...!!

حاذى الاثنان الحمار الّـذي يمشي بِبُطْء بـأبي عبـد الله ، وقـال أبو عبـد الله مُتجاهلاً كلامَ ابنه ، متوجِّهاً إلى ياسِر : أعايَنت ما حدث ؟

ـ عن قُرب ... بل كنت مع القاتل والقتيل ...

قالا معاً بلهفة : وما الّذي حدث ؟ كيف بدأت المشكلة ؟

وتابع عبد الله : قِيل إنّه تحرَّش بامرأة ...

ـ أجل ... كان يمكن أن أكونَ القاتِلَ لو كان لـديّ سلاح ... فقـد كانت نـذالـة وخِسّة لا تُحتمل .

رفع عبد الله وجهه إلى أبيه : أرأيت يا أبي !!

ثم استـدار إلى يـاسِر : قلت لأبي العِبـارةَ نفسهـا ... ولكن ... كيف حـدث ما حدث ؟

ـ كانت المرأة جالِسة ، تنتظر فَراغ الصّائغ من تَفحُّص قِلادة لها ، تريد بيعها ،

(١) شيئاً كان قد أضاعه وبحث عنه .

وقد اشتغل زوجها بابتِياع بعض حاجاته ، من بَزّاز[1] يفترِش الأرض ، غيرَ بعيد ... وكنتُ واقفاً لدى الصّائغ ، أُبادل غلاماً أعرفه الحديث بانتظار دوري ، لمقايَضة[2] ورِق[3] حصلتُ عليه يوم بَدر ، بشيء من ذهب . وفجأة هَبَّت المرأة واقفة ، وانطلق الفِتية ضاحِكين بِمُجُون ، فقد كانت بعض أذيالها معقودة إلى غِطاء رأسها ، مما كشف جسمها ، فاضطربت ، وجعلت تدور حول نفسها ، في محاولة للتَّستُّر ، ثم لم تمِلكْ أخيراً إلاّ الجلوس أرضاً ، وهي تصرُخ وسَط حَلْقة الفِتيان ، فأحَسّ بعضهم بسُوء ما فعل ، ولاذ بالفرار ، بينما تجمَّع النّاس حول المرأة ، وهجم زوجها على أوّل فتًى استطاع الوصول إليه ، وهجمتُ وصاحبي على آخَرين .

استبدَّ بالفِتية الخوف ، وراح كلّ منهم يتَّهم الآخر ، بأنه هو من قام بالفَعْلة عَبَثاً ومُجوناً ، حتى استقَرُّوا على واحد منهم . وتكاثر جمع من يهُودَ علينا مُهدِّدين ، بينما انبرى الجاني ، وقد استقوى بمن حضر من قومه ، يُطلِق الشّائم وبَذِيء الكلام ، وراح يغالب زوج المرأة ، حتى كاد يلقيه أرضاً . فهجم رجل كالبرق طعنه بِمُدية كانت معه في ظهره ، فأرداه في الحال ، وهمّ بالهرب ، فانقَضّ عليه جمع من يهودَ . وفي مثل لمح البصر ارتفعت صيحاتهم المتشفِّية : قتلناه ... ثأرنا لرَجُلنا ... واشتبك نفَر من المسلمين وبني قَيْنُقاع ، ثم تكاثر عليهم النّاس لفَضّ النِّزاع ، والحَيلُولة دونَ المَزيد من الشَّرّ ... ثم احتملَ كلٌّ قتيله ، وهو يهدّد ويتوعَّد .

(١) البزاز : من يبيع الثياب والمتاع .

(٢) لمبادلة .

(٣) الورِق : قِطَع أو نقود من الفضّة .

قال عبد الله : فَمَن أخونا ؟

قال ياسِر : وهو يرمُق أبا عبد الله الصّامتَ المتجَهِّم : لا أعرفه ...

وقال أبو عبد الله ، وهو يهمّ بالسَّير متثاقِلاً : الآن ... انتهى الأمر ... قتيل بقتيل ... لكنّها حادثة لن تَمُرَّ هكذا ... ولا بُدّ من تأديب هؤلاء .

اندفع عبد الله قائلاً ، وهو يَجُرُّ ياسِراً لِيُماشِيا رَكوبة الأب : أرأيت !! ما أشبههم بوحش مُتربِّص بفريسته[1] ، فلا تأمنَ انقضاضَه عليها !!

قال ياسِر : لا أمانَ معهم ... كلُّ يوم يزيدنا يقيناً بعِدائهم المُرّ ... لا بدّ من تقليم أظفارهم ، وإخماد جَذوة كَيدهم[2] .

قال عبد الله متحمِّساً : بل لا بدّ من اجتِثاثهم[3] ... أُحِسّ أنهم خِنجَر مُسَلَّط على رِقابنا ... يالهم من موتورِين[4] لُؤماء .

قال الأب : أرجو ألاّ أُضطَرَّ إلى الاستدانة من يهُودِيّ ثانية .

قال ياسِر : يعرفون أننا لا نفعل إلاّ مُضطَرِّين .

أسرع أبو عبد الله : أجل فدِينُنا يمقُت الرِّبا . وهذا أيضاً من أسباب عِدائهم لهذا الدِّين .

قال عبد الله : طبعاً ... ذلك يُضِرُّ بمصالحهم .

(١) مترقّب لما يحلُّ بها .

(٢) إبطال ما يسرّون من مكر وخداع .

(٣) اقتلاعهم من جذورهم .

(٤) الموتور : من أصابه مكروه أو فزع .

قـال الأب : قُل ينسِفها ... إنهم يكنِزون الـذّهب من رِبا أموالهم ، وقـد كره الإسلام ذلك ، ووضع قيوداً كثيرة عليه ، كأنّه يمهّد لتحريمه نهائيّاً . وبـذلـك يُحاربهم في مَورِد رزقهم الأوّل .

سادَ الصّمت قليلاً ، ثم انبرى عبد الله : ليس هذا فقط ...

لم يُعقِّب الأب أو ياسِر ، واستأنف الثّلاثة السّير ، وفَجأة استدار عبد الله إلى ياسِر : والآن قل لي : لماذا تُقايِض وَرِقَك بالذّهب ؟

ارتبك ياسِر قليلاً ، فقد فاجأه السّؤال ، ثم همس : إنه صَداق[1] امرأة سأتزوّجها ...

برَقت عينا عبد الله ، واستدار مواجِهاً ياسِراً ، وقد ملأت وجهَه ابتسامة كبيرة : تتزوَّج !! وهل عرَف سعد ؟

- ليس بعد ...

- يكفي ... هذا خبر سبقتُه إليه ... كم سيُسرّه ذلك !!!

ابتسم ياسِر ، وأخذ نَفَساً عميقاً وهو يقول : لوتعلم يا عبد الله كم أحبّ أولئك القوم !!! إنهم أهلي وعِزْوَتي[2] والمُنعِمين عليّ ... كنت وأمّي رَقِيقَين[3] لأمّ سَعد ... أرسلَنا أبوها لخدمتها عندما تزوّجت ، ولَمّا تطاولت بها الأعوام دون أن تُرزَقَ بولد راحت تعاملني كولد لها . ثم آتاها الله سعداً ، فكان أحبَّ

---

(١) مَهْر .

(٢) من أنتمي إليهم .

(٣) مملوكَين .

إليّ من نفسي ، ولم تلبثْ أمّ سعد أن رُزِقت بولد لم يعِشْ إلاّ أيّاماً معدودات ، ثم تلته هند الّتي تخصّصت أمّي لرعايتها وإرضاعها ، وتوُفِّيتْ أمّي وهند في الرّابعة من العمر ...

كان مُصابي بأمّي أليماً ، وقد عَزَّيت نفسي بمحبّة الصَّغيرَين ، وعطف أبيهما ، وحنان أمّ سعد ، غير أنها لم تلبثْ أن وقعت هي الأُخرى فَرِيسة المرض ، ومَكثتُ إلى جوارها كظلّها ، إلى أن اختطفها الموت ... ثم دخل الإسلام الدّار ، مع مَجِيء العمّة ومُصعَب وعُتبة ... وفي يوم لا أنساه أبداً ، عرض عليّ أبو السّعد حُرّيّتي مُقابلَ إسلامي[1] ... ولم أملِكْ نفسي أن قلت له : حتى لو لم تفعلْ فأنا على دين مُحمّد ... وهكذا صِرت ياسِراً ... لم أعُدْ رَقِيقاً مملوكاً .

وقد استقللت بمعيشتي منذ وطِئنا يَثربَ ، فأقمت مع رفيقَين لي في حُجرة ، ورحت أعمل بكلِّ ما استطعت من الْجُهد ، فاجتمع لي من عملي وغزوي مع النّبيّ ما مكّنني من الاستقلال بالسَّكَن ، فعزمت على الزّواج ... لكنّني لا أستطيع فَكاكاً من ارتباطي بأبي السَّعد وأسرته . فأنا دائم الوَلاء[2] لهم ، حريص على تَلبِية ما أقدر عليه من حوائجهم ، وَفاءً وحُبّاً وأُخُوّةً ، لا عُبوديّة ورِقّاً ...

(١) عرض عليّ أن يمنحني الحرية إذا دخلت في الإسلام .

(٢) المحبة والنُّصرة .

٢١

في حلبة التّدريب

بـدا أُحُـد من بعيـد جَملاً كَهلاً ، جـاثِماً ببَـلادة في الأُفُـق الشَّرقيّ ، يحجُب خيـوط الشَّمس الـواهنـة عن المنبَسَـط الممتَـدّ بين يـديـه . واستغرقت الصّـورة سعداً ، وهو يسير في هذا الصَّبـاح البـاكر بصمت مع رفـاقـه ، إلى فُسحـة عنـد أذيال أُحُد ، خُصِّصَت للتَّدريب .

راحت أصوات الرِّفـاق تعلو ، وتتضَوَّع[1] مع النَّسمات البَرُود ، فتمـلأ المكان المُـوحِش أُنسـاً . ومـدَّ سعـد عينيـه إلى طرف الفُسحـة ، يَطمَئِنّ إلى التّـوءمين اللّذَين كانا يرافقانه ، شأنَ الكثير من أترابهم ، لحضور التّـدريب ، والاستمتـاع بمراقبة الفِتيان وهم يُمارسون القتال .

كان مُصعَب وعُتبة جالِسَين مع إبراهيم أخي عبـد الله ، تتراقص الفرحـة في وجوههم الّتي لوّنتها بُرودة الصّباح . وضَمّ عُتبة أذيـالـه على سـاقيـه المَثنيَّتَين ، وانكمش ملتصقاً بِمُصعَب ، وراح ينظر إلى الشَّمس الباهتة ، يستعجلها الـدّفْء الشَّحيح الّذي تجود به في هذه الصّباحـات الشّتـائيّـة ... أمـا مُصعَب فقـد كان ذاهـلاً عنـه ، وقـد انهمـك في روايـة أخبـار مُغـامراتـه ، والسّيـوف الخشبيـة ، وجَوْلات القتال الّتي يخوضها مع عُتبـة وعُمَر وعَفراء . وراح إبراهيم يستمع إليـه

---

(١) تتردَّد وتنتشر .

بفضول وهو يحدّثه عن الصَّديقَين الجديدَين . وقال إبراهيم باسماً بعد صمت متأمّل : كم تحبُّون العين !!

نظر إليه مُصعَب مستفسراً ، فأضاف : اسمع : عُتبة ، عُمَر ، عَفراء ، كلّها تبدأ بالعين ، حتى أنت « مُصعَب » في اسمك عين ...

ابتسم مُصعَب ، وهو يتلفّت إلى أخيه الملتصق به ، وبادله عُتبة الابتسام ، وطَرَفَ بعينيه(١) : أعرف ذلك من قبلُ .

قال إبراهيم ، وقد انحنى ليرى عُتبة ، بينما تراجع مُصعَب قليلاً إلى الوراء : وكيف عرَفت أنت ، وأخوك الكبير لا يعرف !؟

استقام عُتبة في جِلسته متَمطّياً ، وقال : ليس الكبير ... نحن تَوْءمان ...

وعاد ينحني لينظرَ إلى إبراهيم ، عَبْرَ مُصعَب الّذي ما يزال منتصِباً : ... ثم إنني أعرف ذلك ... هند قالت لي ...

ـ وهند تعرف ؟!

تدخّل مُصعَب ، وهو يستعيد وضعه في الجلوس : أجل هند تعرف ... إنها تكتب ... كلّهم يكتبون ، سعد وخالي ... وأمّي قليلاً ... أمّي تعلّمنا القرآن ...

ـ ومن علَّمهم ؟

ـ لا ندري ...

---

(١) أغلق جفنَيه وفتحها بإشارة تعني « نعم » .

قال عُتبة وهو يستند إلى ركبتيه : هند علَّمتها أمّ أَيّوبَ .

ـ من أمّ أَيّوبَ ؟

ـ نحن نقول : خالتي أمّ أيّوب ... وأنت من علّمك ؟

ـ أسير ابنِ الدُّخْشُم .

ـ آه ... أسير . نحن لم يقبلونا ... قالوا ما زلنا صغيرَين ...

ـ أنتما صغيران ... أنا أكبر منكما ... كلّ الّذين يعلّمهم الأَسرى كبار ... أعني شبّاناً .

لم يَرُقِ الحديثُ مُصعَباً ، فعاد إلى حديث السّيوف والمغامرات ، مقاطِعاً إبراهيم وعُتبة :

ـ كان لديّ العَضْب[1] ... كسرتُ به عَشَرةَ سيوف لعُتبة وخمسةً لعُمر .

نظر إليه عُتبة خِلسة ... يالِلمبالغة !!! وقال إبراهيم : عَشَرة وخمسة !!! يالِلسَّيف !! لعلّه العَضْب الحقيقيّ !

وضحك الأولاد معاً ، وقال عُتبة : لا تصدّقه ، ليس إلاّ سيفَين لي وواحداً لِعُمَر .

ولم يُخْرِجْ مُصعَب الأمر عن المُزاح ، وأضاف ضاحكاً : بل صدّقني ... كسرت أكثر من ذلك بكثير ...

عادت بُرودة الصَّباح تحمل الارتعاش إلى أجسام الصِّبية المتقبّضة ، وهم

(١) اسم سيف للنّبيّ ﷺ .

يَمُدُّون أعينهم إلى الفُسحة المنبسطة أمامهم ، وقد تحلَّق في أحد أطرافها عدد من الفِتيان حولَ رجل يُحَدِّثهم ، بينما تناثر الصِّبيانُ الأصغر سِنّاً على ذُيول أُحُد الصَّخريّة الْمُحيطة بالفُسحة ، يَرقُبون من بعيد بَدْء التّدريب العَمليّ على فنون القتال .

كان التَّدريب مَهوَى قلوب الفِتيان[1] ، ومدار أحاديثهم ، وموضع فخرهم ، وكان اجتماعهم له ندوةً لترويضِ الجسم والعقل ، وتدريب اليد على إتقان استعمال السِّلاح ... كانوا كلّهم يَعُون ما يجري حولهم ، ويُدرِكون ضرورة الاستعداد للدِّفاع عن كِيانهم . فقد علَّمهم الدِّين الجديد أن يسألوا ليعرِفوا ، كما علَّم آباءهم أن يبادلوهم الحديث كرجال صغار ، سيَحُلُّونَ مَحَلَّهم بعد حين ...

وعلى الرَّغم من أن التَّدريب كان يَتِمُّ بسيوف مَفلُولة[2] ، فقد كان الفِتيان الّذين أسعفهم الحظّ بسيوف ، يُصِرُّون على اصطحابها معتَزّين مفتخِرين . وكان بَرنامَج التّدريب يقتضي التَّبادل ، فلا يستمِرُّ اثنان في المجالدة طويلاً ، ويتخلَّل ذلك فَتَرات استراحة ، سُرعان ما يلتئم فيها شمل أصدقائنا ، مهما أبعد التَّدريب بعضهم عن بعض .

أخرج ابن عُمَر من جَعبته تَمراتٍ مَدَّ بها يده إلى الرِّفاق ، وهو يتابع حديثاً ، كان قد بدأه من قبلُ : أَعتمِد على مواصلة التَّكرار لِما أحفظ من الآيات وما يقوله النَّبيّ .

سأل عبد الله : أوَتحفظ ما يقوله النَّبيّ أيضاً ؟

(١) هوايتهم التي يشغفون بها .

(٢) مثلّمة .

أومأ ابن عُمَر برأسه مؤكِّداً : بالعِناية نفسِها الّتي أحفظ بها كتاب الله .

وقال سعد : أنا أفهم كلام النَّبيّ ، وألتزم ما يقول ، أما القرآن فأحفظه ... أَنَس بن مالِك يحفظ حديث النَّبيّ .

قال ابن عُمَر : الأمر أسهل بالنِّسبة إليه ، فهو يلازم النَّبيّ ...

قال عبد الله : لو دوَّنتَ ذلك ، فأنت تعرف الكتابة ، وبذلك تضمن ألاّ تنساه .

ـ لقد نهانا النَّبيّ عن ذلك .

ـ أحقّاً ! لماذا يا تُرى ؟

ـ لا أعرف ... يقولون : لئلاّ تختلطَ أقوالُه بما نُدوِّن من القرآن الكريم ...

قال سعد : حقّاً هذا أفضل و ...

ولم يُتِمَّ سعد عبارته . فقد لاحظ أن نظراتِ رفيقَيه تَفِرُّ عن وجهه ، لتتابِعَ شيئاً مّا خلفه ، واستدار إلى حيث رَمَيا ببصرَيهما ، فإذا هو بمشهد لا يَسرّه أبداً . كان شبحان أسودان يسيران غيرَ بعيد ... فُوجِئ سعد : يهُودِيّانِ !!

وعاد يستدير إلى رفيقَيه المتجهِّمَين[1] : من يكونان ؟!

وقال عبد الله وهو يُنعِم النَّظر[2] : ما الّذي أتى بهما ؟!

---

(١) العابسَين .

(٢) يطيل النّظر متفكّراً .

لم يَفُه ابن عُمَر بكلمة[1] ، بل راح يُتابع الرَّجلَين بعينَيه الغاضبتَين . أضاف سعد : ماشعرت كاليوم بعداوة هؤلاء ...

ظلَّ ابن عُمَر على صمته ، يتابع الرّجلَين بعينَيه ، بينما قال عبد الله : إنّهم شديدو الحِقد ، عميقو العَداوة ، يحسدوننا على كلّ خير يصيبنا ، ويتصَيَّدُون لنا المَكايد . وما رأيتُه في سوق بني قَيْنُقاع دليل قاطع على عِدائهم المُرّ .

هزَّ سعد رأسه موافِقاً مُقِرّاً : وموقفهم من بَدر !

ـ أرأيتَ ! وَدِدت لو أنني ألقمت ذلك القذِرَ حجراً أَخرَسَه .

وهنا التفت ابن عُمَر وقال بِحِدّة : أتمنّى أن نُقيمَ جداراً بيننا وبينهم ... لاأحبُّ أن يطَّلِعوا على شيء ممّا نقول أو نفعل ... أراهن على أنهم الآن يَحِيكون لنا مؤامرةً مّا ، بل مؤامراتٍ .

قال عبد الله : أنا معك ... لقد ألقوا أقنعتهم بعد بَدر ، وما حادثة السّوق إلا شاهد حيّ على ذلك .

أحسَّ سعد فَجأةً بكآبة ثقيلة تَجثُم على صدره ... وطنَّت في رأسه كلمات أبي العَبّاس عَشِيّةَ أمسِ ، وهو يتحدَّث مع أبيه وياسِر عمّا جرى في سوق بني قَينُقاع قبل أيّام : « لن ينفعَ معهم إلاّ السّيف ... وما صَبَرْنا عليهم وقد تنكَّروا لعهودهم !! » وشرد قليلاً ، ثم قال متأمِّلاً : لعلَّهم أشدُّ من قُريش عِداءً ... بل هم كذلك بالتّأكيد ... ولولا المُعاهدة لانضمُّوا إلى قُريش في بَدر .

(١) لم تنطلق من فيه كلمة .



خفَض الأسـود بصره منكمشاً ، وهَمس لـزميلـه ، وانحرفـا مبتعـدَين ، دون تكرار النَّظر إلى هؤلاء « الأشرار الصّغار » .

قال ابن عُمر ساخراً : لولا الْمُعاهَـدة !!! أتظنّ حقّاً أن هؤلاء يقـاتلون ؟!.. هؤلاء جُبناء ، يُحرِّضون ... يشترون الضّمائر ... يتآمرون ... لكنّهم أشِحّـاء[1] بأنفسهم النَّتِنة ، أكثر ممّا هم أشِحّاءُ بأموالهم ...

قـال عبـد الله : هـذا صحيـح ... يحرِّكـون المُنـافِين هنـا ، وقُريشـاً هنـاك ، ويقِفون هم من بعيد لئلاّ تكونَ لنا يد عليهم[2] ...

قـال ابن عُمر : أتـدرون ؟! يتنـاقـل النّـاس خبراً لا أعرف مبلـغ صحّتــه ... يقولون إنَّ النَّبيّ سيسير لقتال بني قَيْنُقاع .

قال عبد الله : أجل ما زلنا نسمع بذلك منذ حادثة السّوق .

قال سعد : ليته يفعل ...

حاذى الأسودان الفِتية ، ورفع أحـدهمـا بصره نحوهم ، فـاستُثِير عبـد الله ، وتقدَّم منهما خُطوَتين غاضبتَين ، وقد عقد حاجِبَيه ، وتلَمَّس سيفـه وهو يزمجر مُهـدِّداً بغضب مكتـوم ، ممّـا جعـل الأسـود يَخفِض بصره منكمشـاً ، ويهمِس لـزميلـه ، فينحرفـان مبتعــدَين ، دون تكرار النَّظر إلى هـؤلاء « الأشرار الصِّغار » .

على الرّغم من التَّـوتُّر الّـذي خيَّم على الجميـع ، فقـد حمـل مـوقف عبــد الله الابتسام إلى سعد ، ثم انتقل منه إلى ظلٍّ ابتسامـة بـاهتـة على وجـه عبـد الله ، الّذي تمتم وهو يعود إلى موقعه مع رفيقَيه ، مُحَدِّجاً ظهرَيِ الأسودَين باشمئزاز : الجبناء !.. ليس وراءهم إلاّ البلاء .

(١) شديدو البخل .

(٢) لئلا يعطونا ذريعة لقتالهم .

بعد صمت قال ابن عُمر : الآن تيقّنوا أنّ السّيادة لن تكونَ لهم ما دام الإسلام قائماً ، ولا بدَّ من اشتداد حِدّة مُؤامَراتهم علينا . بل لقد صرَّح بنو قَينُقاع بعدائهم ونقضوا عهودهم .

قال سعد ، وطائف من رُوح هند يخفُق في صدره : وهل نقف مَكتُوفِي الأيدي ؟! هل نصمت حتى يُتِمّوا حِياكة مؤامراتهم ؟!

قال ابن عُمر : ومن قال ذلك !؟

عاجله عبد الله : النّاس كلّهم ، مُهاجِرين وأنصاراً ، رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً ، يَغلُون ثورةً على ما يحدث .

قال سعد : والنَّبيّ ؟ لا بدّ أن يفعلَ النَّبيّ شيئاً .

قال ابن عُمر : لا بدّ أن هناك تدبيراً مّا ... ولا أظنّه بعيداً ... وقد نفاجأ بالنَّبيّ يقود النّاس لردعهم .

قال سعد : وهو يتحسَّس حِمالة سيفه : يبدو أنّ سيوفنا هذه سيكون لها الدَّور الأكبر فيما يلي من أيّام ..

قال ابن عُمر في أسَف : أجل ... على الرّغم من أن ديننا لا يبدأ حرباً ، ولا يخوضها إلاّ ردّاً لعُدوان أو دَرْءاً[1] لِخَطَر .

قال سعد : كان يُخَيَّل إليّ أنّ للحقّ قوّةً تنبُع منه ، تكفُل له السّيادة . ولكنّني اكتشفت أن للباطل أسلحة فتّاكة ، لا بدّ من التَّصدّي لها بأسلحة مثلها ..

---

(١) دفعاً وردّاً .

قال عبد الله : أجل سعد ... لا ينتصر حقٌ أعزَل على باطِلٍ مُسَلَّح ، ولا بُدَّ من أن يتَّخِذَ الحقُّ سلاحه .

قال سعد : ولا بَديلَ اليوم من نُصرة الحقِّ بالقوّة ، بالسُّيوف .

قال عبد الله : وهو يَمُدُّ عينَيه متأمِّلاً الصِّبية الجالِسين على الصُّخور القريبة : هؤلاء أيضاً ... لا بدّ أن يقِفوا إلى جانب الحقّ بالسُّيوف ... تُرى متى ينتهي ذلك ؟

قال ابن عُمر : لن ينتهيَ يا عبد الله ... حتى لو انتهى دَور السِّلاح في الجهاد ... فلن ينتهيَ الجهاد ... لأنّ الباطل بالمِرصاد دائماً . أما سمعت قول رسول الله : الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ؟

استولى على سعد مزيج من أحاسيسَ جارفةٍ : القوّة ، الثّقة بالله ، التّرحيب بالمسؤوليّة عن السّعادة الحقيقيّة والخير الحقيقيّ للنّاس كافّة ... وكَبُرَ ذلك في نفسه ... ما أعظم هذا الدّين الّذي يجعل كلّ فرد مسؤولاً عن خير البشريّة كلّها !!! إنه لا يعرف لتلك الأحاسيس اسماً ، لكنّه يعرف ذلك الفَوَران الّذي يملأ أقطار نفسه ، عندما تتزاحم الكلمات والمعاني وألوان الشُّعور على لسانه وقلبه ، قبل أن يُولَدَ على شفتَيه الشِّعر .

هذه المرّة استسلم سعد بشجاعة ... : كيف يخجل بطل يحمل مسؤوليّة البشر جميعاً من الإفصاح عن خلَجات شعوره ؟!!

هكذا سأل سعد نفسه قبل أن يهتفَ : اسمعوا أيّها الرّفاق ...

بل لقد أضاف بِجُرأة غريبة : ... ورَدِّدوا معي :

نَـــدعُــو إلَى النَّجـــاةْ　　بـــالرِّفْــقِ والأنـــاةْ
فـــإنْ أَبَى الطُّغـــاةْ　　ودَنَّسُـــوا الحَيـــاةْ
فـــالـوَيـــلُ لِلجُنـــاةْ　　مِن وَثْبـــــةِ الكُماةْ

المحتوى

من عناوين سلسلة موكب النور

صدر منها :

١ ـ أَخَوَان في أمّ القرىٰ

٢ ـ الطريق إلى يثرب

٣ ـ طلع البدر علينا

٤ ـ السيوف تنتصر للحق

في مرحلة الإعداد :

٥ ـ حكايات من المدينة

٦ ـ أبطال صغار

٧ ـ العودة إلى مكة

٨ ـ في مواجهة الروم

٩ ـ إذا جاء نصر الله

١٠ ـ أعظم الرجال

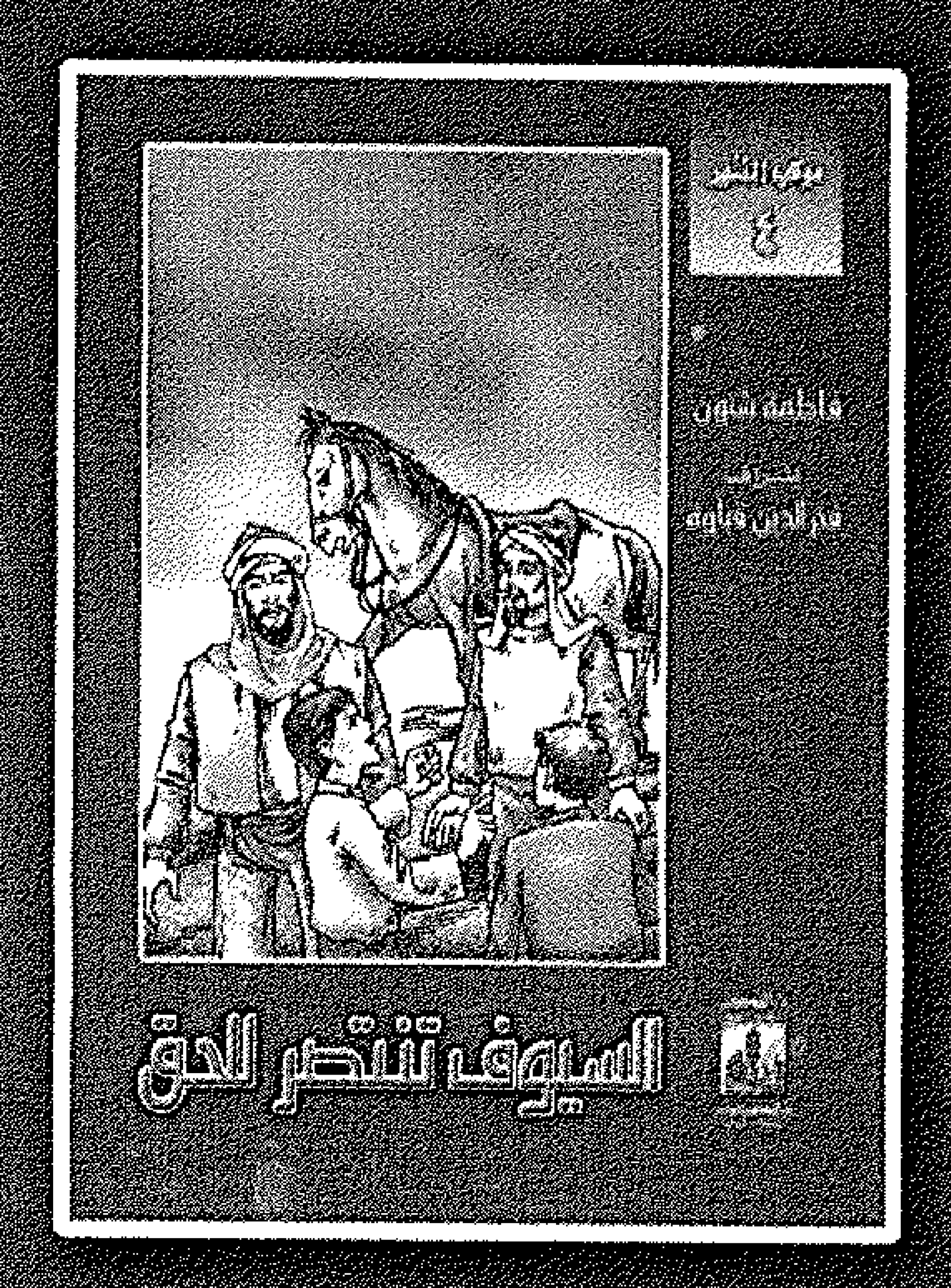


١٩٩٩
إعمال العقل
مفتاح التقدم

SWORDS BACK UP TRUTH

Al-Suyūf Tantaṣir Li-al-Ḥaqq

Fāṭimah Shannūn

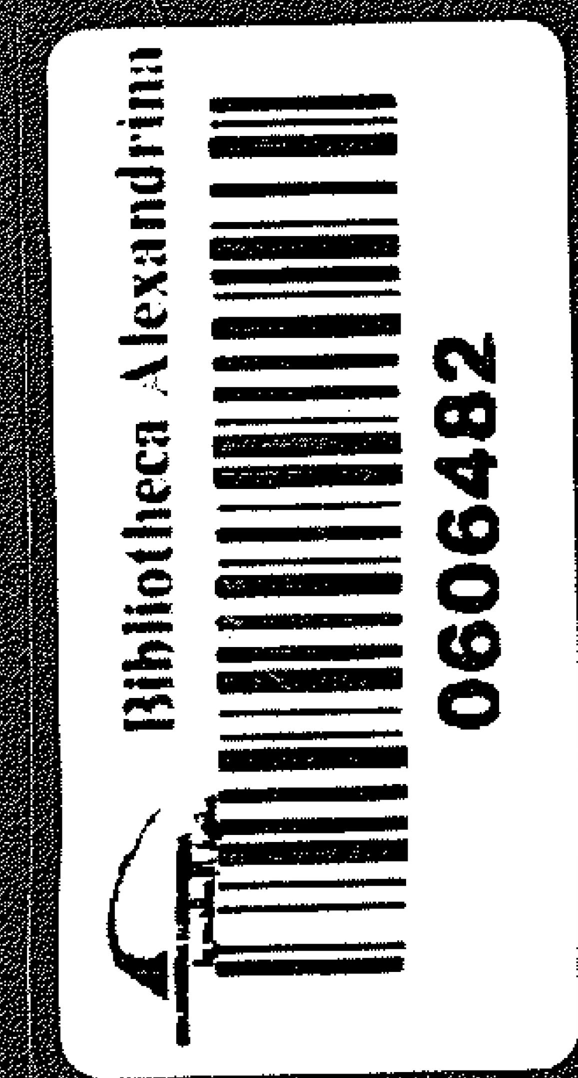


بالكلمة الطيبة، واللغة الرفيعة، والأسلوب الأنيق، والوعي السليم لروح الرسالة الإسلامية، والرغبة الصادقة في التوجيه والإمتاع والتوعية، نتابع رواية (موكب النور) مسيرة الدعوة الإسلامية المباركة، من خلال شخصيات حية نابضة بالإيمان.

إنها تتجه إلى الجيل اليافع المتعطش إلى المعرفة والقدوة والمتعة البنّاءة، فتقدم له الكثير مما يدور في خَلَده، ويلهب أشواقه، ويشكل أحلام يقظته من حماسة وتضحية وإقدام، وتصور له ألوان الجهاد الروحي والمادي، والاستجابة العفوية للقيم الإنسانية، تزوده بالأداء اللغوي الممتع، وتعرفه الكثير من المواقف البطولية والإنسانية في تاريخه بأمانة علمية، اعتماداً على الأكثر ثقة من المصادر.

إنها رواية (موكب النور) بأجزائها المتتابعة -إن شاء الله- تجسد الإيمان بما لأدب الطفل من تأثير في صنع الإنسان، انطلاقاً من سنة القرآن العظيم من إعزاز للكلمة، وتقدير للبيان، حين جعل «اقرأ» فاتحة خطابه للبشرية، فخلد بذلك أثر الكلمة في توجيه الروح والعقل والحياة.

الدكتور فخر الدين قباوة



DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-678-9

